رواية ذات أحداث حقيقية

# 4 سيلسيوس

أو ما شابه

إبراهيم إدريس

روايـــة ذات أحـــداث حـقـيـقـيـة

# 4
# سيلسيوس
## أو ما شابه

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

**الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2019 م - 1440 هـ**

**ردمك 978-614-01-2773-9**

**جميع الحقوق محفوظة**

**توزيع**

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

**يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.**

**إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي** الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

**"إلاّ أن في الروايات نوعًا من أنواعِ العبودية، إذ أنك تجد نفسك مضطرًا لإنهاء ما بدأتَ، طوعًا لا كراهية، سائرًا في طريقٍ رسمها لك كاتبٌ ما، لا مهرب لك من معرفة مصير ما خطّه ذاك القلم لأحد أبطاله، والذي بات أحد أهم الشخصيات في خيالك، لا قدرة لك على مسح دموع الحزن ولا المشاركة في صناعة دموع الفرح، درعك العجز ورمحك الأمل، هذه هي كل ما تمتلك من الأسلحة النفسية لتواجه بها نزوات ذاك الكاتب الغامض".**

**مقتطفات من الورد**

**إبراهيم إدريس**

# المحتويات


المقدمة.....9

الفصل الأول: من بيروت إلى الجزائر..... 19

الفصل الثاني: قبرص..... 37

من بيروت إلى الجزائر (التتمة)..... 47

قبرص (التتمة)..... 49

الفصل الثالث: غدامس..... 51

الفصل الرابع: زُوارَة..... 73

الفصل الخامس: البحر..... 85

الفصل السادس: من إيطاليا إلى فرنسا.....105

الفصل السابع: البرّاد.....115

الفصل الثامن: مريم.....135

الفصل التاسع: الثلاسيميا.....145

الفصل العاشر: اندلاع الأزمة.....165

الفصل الحادي عشر: البداية.....177

# المقدمة

**﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**

**لم أجد أجملَ من فاتحةِ "فاتحةِ الكتابِ" لهذا الكتاب**

**و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**

**ولا عجبَ أنها أول ما نطق به البشر**

# إهداء خاص

إلى

محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

إلى ابنته مريم

إلى والدها عيسى

أو ما شابه

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿... بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

**[هود: 41]**

**صدق الله العظيم**

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنّ رَسُولَ اللّهِ صـــلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا اسْتَوَىَ عَلَىَ بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَىَ سَفَرٍ، كَبّرَ ثَلاَثًا، ثُمّ قَالَ:

(سُبْحَانَ الّذِي سَخّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنّا إِلَىَ رَبّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللّهُمّ إِنّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبرّ وَالتّقْوَىَ. وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىَ. اللّهُمّ هَوّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا. وَاطْوِ عَنّا بُعْدَهُ. اللّهُمّ أَنْتَ الصّاحِبُ فِي السّفَرِ. وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ. اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بكَ مِـــنْ وَعْثَاءِ السّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ).

**رواه مسلم**

# من بيروت إلى الجزائر

(... وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ).. فَرغت من دعائي هذا بالتزامن مع مواجهتي لبوابة الطائرة التي لا أدري كيف سيقت قدماي إليها، كان آخر ما علق في ذهني وجه أمي الدامع أثناء توديعها لي. أتراني كنت في مكان ما خارج جسدي طوال ذاك الوقت! منذ لحظة وداع أمي لي إلى لحظة مواجهتي لفوهة البركان تلك؟ "رغم كونها مواجهتي الثانية مع الطائرة" نعم بدت أمامي بوابتها كفوّهة بركان!

ورغم جمالها أطلّت عليّ من على باب الطائرة ماردة أرهبتني، كان هَمها الوحيد الترحيب بزُمَر البشر الوافدين إلى الطائرة التي تعمل فيها. ومن خلفها أخذت ألسنة نيران احتمالات مستقبلي المجهول تلسعني! وجدت نفسي من على تلك البوابة كالمُعلق؛ مُعلق على مشنقة، المشنقة مُنتصبة فوق جرفٍ هارٍ. في بقائي عليها موت، وفي نجاتي منها موت آخر.. لا ليس آخر، بل بلون آخر. إذ بات للموت في زماننا ألوان، في حياة خلت من كل لونٍ سوى الألوان الخاصة بالموت.

وبإيماءةٍ خجولةٍ من رأسي رَدَدْتُ على الماردة رحابة استقبالها، وذلك رغم ما فعلته بي دون قصدها، ثم أوغلت يمينًا لداخل الطائرة حاملاً بيُسراي حقيبتي الصغيرة فوق مستوى كتفي وأخذت

اخترق صفوف المقاعد، الصف تلو الصف. سرت سيْر جنديّ يشارك قسرًا في حمل نعش دكتاتور شاخ كثيرًا قبل الموت. وتابعت المشاركة في حمله إلى أن وصلت وتموضعت في مقعدي المذكور في بطاقة الصعود إلى الطائرة، ولحظتها تبيّن لي أنني لست بجانب النافذة ولا حتى بجانب الممر.

تنهدت همًّا مما أوصلني لمقعدي في الطائرة، ثم واريت حقيبتي تحت المقعد الذي جلست خلفه، وبسرعة طالب نجيب ثبّتُّ الحزام حول خصري وشددته، وبعدها تنفست الصعداء بروح الظافر بأحد أهم العطاءات. وأخذت أتنعّم بصمتٍ عمّ ذهني عدة ثوانٍ حطمه تساؤل أحد الركّاب: (هل لي أن أدخل؟) كان مقعده بجانب النافذة، (تبًّا!) أجبته في نفسي، ثم منحته إيماءة كاذبة كإيماءتي السابقة لتلك الماردة، أقصد المُضيفة، وأثناء ذلك نطقتُ قائلاً: (بالطبع).

تموضع كلٌّ من الركّاب في مكانه ببطء مبالغٍ فيه، يماثل بطء حيوان الكسلان الشهير بكَسَله، وأتبع ذلك تأكّد إحدى المضيفات السريع من ربط الجميع لأحزمة مقاعدهم، بينما أخذت أخرى تتأكد من فتح ستائر النوافذ على وسعها، وما بين هذه وتلك ارتأيت استثمار وقتي بما قد ينفعني في سفري، ولوفرة الإمكانيات في الطائرة اخترت النوم كاستثمار. نعم لم أجد أفضل منه كاستثمار! فأغمضت عينيّ سائلاً المولى النوم. وتسلل إلى نفسي الشعور بكوني أتهادى إليه ولكنني لم أنم.

وفجأة ظهر أسعد أمامي؛ أسعد رفيق سفري، تذكرت!.. نعم الآن تذكرت، قبل يومين.. نعم مجرد يومين، استيقظت باكرًا.. أقصد استيقظت مجازيًا فلم أتمكن ليلتها من النوم، كان ذلك في أحد أيام

شهر حزيران من عام 2014 ميلاديّ، أحد أيام شهر رمضان المبارك، كانت العائلة مجتمعة؛ معظمها على الأقل، أمي.. أبـــي.. إخـــوتي.. أبناؤهم.. زوجتي.. والدة زوجتي.. وبالطبع أبنائي باستثناء مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط، كانت نائمة آنذاك، والحمد لله أنها كانت كذلك. كنت صائمًا، بل كان الجميع صائمين بينما أخـــذ الحـــزن يأكل أمامنا ويشرب بفظاظة دون أدنى استحياء!

أذكره كان يومًا مغايرًا لسفرٍ مغاير، ســـفرٍ يمتـــاز باحتماليـــة اللاعودة، واللاعودة إلى أين! إلى أرضٍ الوطن، الأرض التي لا يتـــوق لفراقها إنسان راشد. سفرٍ بتذكرة ذهاب فقط شاملة لخدمـــة عـــدم ضمان الوصول للوجهة المنشودة، لا حيًّا ولا ميّتًا ولا حـــتى مجـــرد أشلاء! سفرٍ شبهه البعض بالانتحار، وشبهه البعض الآخر بالفرصـــة الوحيدة للنجاة، والبعض بالموت وآخرون بالحياة.

كان قراري سلسًا رغم صعوبته! سأسافر رغم ما أنا على يقين من مواجهته من المصاعب، فآخر الدواء الكيّ، وأنا من استنفد كل ما تم إيجاده من الدواء. كانت الساعة التاسعة صباحًا أو ما شـــابه، لبست زيًّا رياضيًّا أبيض اللون وكنت أحبه كثيرًا، كان قد أهداه لي زوج أختي. تفقدت محتويات حقيبتي الصغيرة للمـــرة الســـابعة ثم حزمتها باستحكام، وكنت قد أخفيت ما أملك من المال في ياقـــة زيّي الرياضيّ وأكمامه خوفًا من أيّ مأزق محتمل، ثم بدأت تنفيـــذ مراسم الوداع.

ودّعت عائلتي، الواحد تلو الآخر، الصغير تلو الصغير، والابـــن تلو الابنة، والأخ تلو الأخت، والأم تلو الأب، الجميع ممن كـــانوا في أرجاء المكان، كان وداعًا شاحبًا، وداع جثّة لجنّة. فالعائلة جنّـــة وإن

صغر عدد أفرادها، والمودّع جثّة مهما خفق قلبه بالحياة. ومع وصولي لمرحلة وداع زوجتي توقفت! توقفت عن أداء طقوس الـــوداع، وفي الحقيقة لم أقدر عليها. تنهدت كاستراحة محارب، ثم ابتسمت لكبح جماح ثورة دموعي ثم غضضت النظر عن وداعها. أما صغيرتي مـــريم التي تحب القطط فكانت لا تزال نائمة.

(سأمضي، نعم) قلت لنفسي برباطة جأش، انتابني على إثرهـــا حالة من الذعر والجزع، هطلت أفكار غزيرة على عقلي من الصعب تفسيرها أو حتى محاولة توضيحها، (نعم، لا بد من السفر) قلـــت في نفسي مجددًا ولكن بدون رباطة جأش هذه المرة. تنهدت مرةً أخرى مُغلقًا أبواب سمائي أمام أفكاري المشوهة، ونطقـــت مـــن أعمـــاقي بصوتٍ بدا كصوت فزّاعة قائلاً: (سامحوني، وداعًا). وبذلك انتـــهت مراسم الوداع أو بالأحرى هذا ما ظننته.

كنّا في الطابق الثاني وقتها، نزلت للطابق الأول ببطء، نزلـــت بخطوات مكلوم نحو القبر، وأثناء ذلك استشعرت بجســـامة خطـــأي وبأن عليّ القيام بتصحيحه على الفور، فصـــعدت للطـــابق الثـــاني مسرعًا، صعدت بقفزات الأول نحو منصة التتويج، أذكرها، كنـــت مبتسمًا وكانت دامعة تنتظرني، نعم كانت هناك خلف باب البيـــت، باب بيتنا، ويدها اليمنى تصطكّ على مقبضه، أظنها شَعَرَت بـــنفس شعوري، لا.. بل أجزم بذلك، وفتحت لي البـــاب دون أن أقـــرع جرسه لتودعني وأودعها.

لن أكذب، بَكَيت كما بَكَت، بل وأكثر. طلبت مني ألاّ أتأخر، وأجبتها بصوتٍ أجشّ بكوني من كل بد لن أتأخر وحســـب فأنـــا لست بعائد، وأبديت لها أمنيتي العظمى بعدم تأخرها وأبنائنا باللحاق

بـــي. ثم أنهت كلامها بلا إله إلا الله، وأنهيت كلامي بـــأن محمـــدًا رسول الله، ومضيت إلى مصيري.

خرج معي ابني في وداعي – كان صغيرًا ومـــا زال في نظـــري كذلك – ودون أن أطلب منه كما العادة رفع كتفيه للأعلى ونفـــخ صدره للأمام، بدا تائهًا رغم معرفته حق المعرفة للمكان، كان يحاول زرع فكرة في ذهني مفادها أنه بات منذ تلك اللحظة رجلاً وأنه هو من سيحمي أُسرتنا أثناء غيابـــي؛ غيابـــي الذي سيطول والذي ربما سيدوم. اقتحم ذاكرتي الحديث النبويّ القائل: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها)، وها هو ابني يكمل غرس فكرة رجوليّته حين قيام ساعة وداعي، فيا تبًّا لك يا ساعات الـــوداع! تســـاءلت: (أتراني سأموت حقًا؟) وتساءلت مجددًا، ومجددًا، آه كـــم تســـاءلت حينها! ويقينًا كم تساءل هو! وكم تساءلت جمـــوع المـــودعين وفي مقدمتهم أمي!

كان صغيري يتنقّل ما بين حمل حقيبتي واحتضاني، كان يمسك أحيانًا بإحدى يديّ وأحيانًا بإحدى ساقيّ، وأحيانًا أخرى ينشـــغل بالإمساك بمفاتيح دموعه يُجرّب على عُجالة أنفعها، كان تارةً يســـير أمامي وتارة من خلفي، ثم يُقَبّل يديَّ بحرقةٍ شعرت بمدى بحرارتها، ثم يعود مجددًا لحمل حقيبتي واحتضاني وهكذا دواليك، كان مرتبكًـــا أنهكه التشتت. طلب مني خَجلاً اللعب معه للمرة الأخـــيرة بـــالكُرة ولكنه فورًا سحب طلبه متذرعًا بكونه وقتًا غير مناسب، وبســـبب ذلك تذكرت تعذّراتي السابقة المماثلة وتبيّن لي على الفور كم أنهـــا كانت كلها كاذبة مهما بدا صدقها وقت نطقي بها، فدائمًا ما يكون الوقت مناسبًا للعب مع الأبناء.. إلاّ تلك المرّة، المرّة الأخيرة.

وما كان مني إلاّ أن مسحت بيديّ على رأسه كاعتذار مُبطنٍ وبعثرت شعره الذهبي بوافر الافتخار، وأثناء ذلك وبالرغم من كونها لقطة من بضع ثوانٍ تراءت أمام عينيّ عدة صور خصّت كلٌّ منها مرحلةً عمريّة من مراحل عمر صغيري. كانت مرتبة حسب الترتيب الزمني، أولى خطواته حبوًا منعناه منها خشية تأذّيه، وأولى خطواته سيرًا شجعناه عليها أملاً بإتقانه لها، وأولى خطواته ركضًا سألناه أثناءها عدم تأخره عن العودة للبيت. كانت جميعها مُلتقطة في ذات المكان؛ الطريق الضيّق قبالة باب بيتنا، البيت الذي اخترته ضمن إمكانياتي ليترعرع فيه صغيري وأخواته.

ترى أحقًّا كان الزمن قصيرًا كما بدا يومها؟ كدت أبكي. بكى، تماسكت عن الاقتداء ببكائه وتظاهرت الانشغال بالنظر إلى سماء الحيّ وبيوته، محاله وطرقاته، حتى حصى الطريق انشغلت بالنظر إليها، ثم أخذت أتصفح أوجه المارّة كما أتصفح جريدة إعلانات. وقمت بتوديع بقالة أبي صالح الفقيرة، ومخبز أبي بشير البائس ومُصلى العروة الوثقى حيث كنت أصلي، وتلك العجوز التي تبيع السكاكر على مفترق الطرق. وأثناء ذلك تساءلت آلاف المرات إن كنت حقًّا لن أعود! إلاّ أن التفكير بمثل هذه الأمور مؤلم، مؤلم بحق، والحل الوحيد لمثل هذا النوع من الألم يكمن في التخلص منه، نعم التخلص من فكرة التفكير برمّتها!

كانت مجرد دقائق قليلة هي كل ما حظيت بها من أجل تشييعي لهائل ذكرياتي، كم أسفت لوصولنا السريع للحافلة التي ستقلّني إلى كراج العربات المتجهة إلى بيروت. حاول صغيري كبح دموعه مجددًا ولكنه فشل فشلاً ذريعًا، تمنيت لو أستطيع البكاء معه ولكنني لم

أرغب أن يكون البكاء آخر نشاط مشترك بيني وبينه، بيني وبين ابني الكبير، قبّلته من قلبي مباشرة واعتصرته بين أضلعي بأقصى حرارة ثم انتزعته من داخلي انتزاعًا وألقيت بنفسي في الحافلة. وفيها ندمت على عدم البكاء.

في اللحظات النهائية – النهائية بحق – يتبيّن للإنسان أن قيمة الذكريات لا تُقاس لا بالنوعيّة ولا بالكمّ، بل تُقاس بمجرد حدوثها. نعم بمجرد حدوثها فقط! ألا إن للوداع نكهة وخيمة كنكهة الموت وربما أكثر – وإن كان الوداع مؤقتًا – أصابتني غصّة، كغصّة موت ربما، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، شعرت أنني كقطة من التي تحبها مريم، قطة بسبعة أرواح استنفدت ببذخ للتوّ الروح الأولى من أرواحها السبعة، وانطلقت الحافلة.

استغرق الطريق إلى كراج العربات المتجهة إلى بيروت نصف ساعة أو ما شابه، شعرت بثقلها كسنوات؛ كسنوات حربٍ أو ما شابه، تذكرت أثناءها أدق تفاصيل حياتي اليوميّة، ففي كل شبرٍ من تلك الطريق لي ما لي من الذكريات والتفاصيل. ثم وصلت الحافلة ووصلت معها بالمعيّة، وكنت قد اتفقت مسبقًا مع أسعد كي ألتقي به هناك – أسعد الذي أخبرتكم عنه قبل قليل، الذي ظهر أمامي في الطائرة – بالمناسبة أسعد ليس بقريب ولا بصديق ولا حتى بمعرفة، كل ما جمعني به هو موعد سفرنا الذي اختاره لنا منسق السفر سيئ الذكر والذكرى.

لم أجد أسعد في الكراج كما تخيلت، قلقت بعض الشيء، تشاءمت، تذكرت حُرمة التطيّر فخفّ مستوى تشاؤمي، وتذكرت إمكانية مهاتفته فهاتفته وأخبرني بأنه على الطريق، طمأنني ذلك بعض

الشيء، تفاءلت، تذكرت حُرمة التطيّر مرّة أخرى فخفّ مستوى تفاؤلي، تاهت مشاعري بضع دقائق طويلة إلى أن وصل أسعد. (هـا قد بدأنا) قلت في نفسي.

وفور وصوله ركبنا إحدى العربات المتجهة إلى بيروت، كان فيها راكب واحد، وبذلك صرنا ثلاثة، انتظرنا قدوم رابعٍ مدة ساعةٍ أو ما شابه من دون جدوى. وأثناء ذلك أقنعني أسعد بفكرة الإفطار وكسر الصيام، فالإفطار في السفر رخصة، لم أمانعه ولا حتى حاولت ذلك، وأفطرنا، وبعد انتهائنا من الإفطار طلبنا من السائق الانطلاق، فطلب منّا مقابل ذلك أجرة الراكب المنتظر، لم نقبل وساومناه بنزولنا من عربته وركوب أخرى، ووقتها استسلم وانطلق، (بداية موفقة!) قلت في نفسي. ولم يخطر على بالي قط أنها آخر عمليةِ مساومةٍ سنقوم فيها لفترة ليست بقصيرة.

ساعة ونصف أو ما شابه كانت كفيلة لإيصالنا إلى الحدود السوريّة اللبنانية، وهناك سألني أحد الموظفين السوريّين عن إذن السفر الخاص بي – إذ على كل موظف في قطاعنا الحكومي استخراج إذنٍ ليتمكن من السفر خارج البلاد – فقدمت له الإذن على الفور، كان سؤاله لي مُربكًا رغم روتينية سفري من جهة وقانونيته من جهة أخرى، وأثناء ذلك عملت على إقناع نفسي بأن القلق صفة ملازمة لكل المسافرين وما أنا إلاّ واحد منهم. وبصعوبة بالغة اقتنعت.

وصلنا بيروت قرابة الساعة الثالثة عصرًا، وفور وصولنا توجهنا إلى شاطئ الروشة حيث جلسنا هناك فوق مكانٍ مُطلٍ على صخرة الروشة الشهيرة، بالمناسبة شاطئ الروشة ساحر للغاية. قضينا فيه وقتًا طويلاً، ثم تناولنا وجبة طعام خفيفة، وكانت الساعة قد تجاوزت

الحادية عشرة مساء. ولكننا لاحظنا أثناء تناولنا للطعام وجود شخص ما يناظرنا بنظرات مليئة بالريبة، أهملنا أمره بادئ الأمر وبذلك نجحنا بتأجيل محاولة تصادمه معنا لبعض الوقت. وبعدها بقليل قَدِمَت صوبنا قطة صغيرة تطلب الطعام، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط، ولدواعي سروري قسمت لها مما كان في يدي وأطعمتها. وكم تفاجأنا من ردّ فعل ذاك المريب إزاء تصرفي ومحاولته لافتعال عراكٍ معنا عن طريق تهجّمه على تلك القطة المسكينة.

نهضت غاضبًا للدفاع عن القطة ولكن أسعد أمسكني من ذراعي وسحبني للخلف بحدةٍ وجلافةٍ قائلاً: (سَفَرنا اليوم، لا نريد أيّة مشاكل)، وما كنت لأجلس إلى مكاني لولا كلماته تلك. وفي المقابل لم يكتفِ ذاك المتنمّر بمحاولته الأولى مما جعله يسألنا عمّا إن أعجبنا ما فعله مع القطة أم لا! فأجابه رفيقي: (إنها لك، افعل بها ما تشاء)، حقًا كان أسعد أكثر حكمة مني. وبعدها تركنا الشاطئ لذاك المتنمر وتوجهنا إلى أحد المقاهي وجلسنا فيه حتى حلول الصباح، ثم ركبنا إحدى عربات الأجرة وتوجهنا إلى مطار بيروت الدولي، حيث كانت إجراءات السفر سلسة للغاية، وأثناءها تبيّن لنا أن نصيبنا من مقاعد الطائرة مقعدان متباعدان.

وبعد إنهائنا لإجراءات السفر توجهنا إلى بوابة الصعود إلى الطائرة، وكانت وقتها لا تزال مغلقة، ولكونها كذلك ذهب أسعد لتدخين آخر سجائره قبيل انطلاق الطائرة، ونوعًا ما شعرت أنه تأخر قليلاً وأثناء غيابه فُتحت بوابة الصعود وأغراني ذلك، حاولت انتظاره قدر استطاعتي ولكنني لم أستطع بالكمّ الكافي، إذ كنت أنشد التموضع في مقعدي الخاص بغية الراحة، وهذا ما جعلني أتطاير

للطائرة بخفة، وتمامًا كما نشدت التموضع تموضعت، وكم أسعدني ذلك. وبعد مرور بضع دقائق أو ما شابه ظهر أسعد أمامي قائلاً: (ترقّبني بجانبك) وابتسم يغمز بعينه اليسرى.

رفض أسعد الاستسلام لتباعد مقاعدنا، وبإلحاحه المزعج على العديدين تمكن من تبديل مقعده مع الراكب بجانبي مما مكّننا من متابعة حديثنا الدائر منذ أكثر من يوم. وكم حاولنا وقتها التضاحك للتخفيف من وتيرة تفكيرنا بما يخفيه المستقبل لكلٍّ منا! أذكر أن الطائرة أقلعت يومها في تمام الساعة الحادية عشرة والربع.

وكان من ضمن خطة سير الرحلة التوقف في العاصمة الأردنية عمّان ثم المتابعة في تمام الساعة السابعة من صباح اليوم التالي إلى العاصمة الجزائرية الجزائر، كانت رحلة ترانزيت، وهو مصطلح لم أسمع به من قبل قط، لم يُخيّل لي ماهيّته ولا حتى ما سيحصل لنا ما بين وصولنا إلى عمّان وخروجنا منها، وخصوصًا مكان نومنا.

وفي مطار الملكة علياء الأردني تم تفتيشنا جميعًا نحن كل ركّاب رحلة الترانزيت، ومن ثم أخذوا بصمة العين لكل منّا، وعندما حان دوري سألني أحد الموظفين عن اسمي الرابع وكم فوجئ بجوابي بعدم معرفته! إذ اعتدنا في الوطن الاكتفاء باستخدام الاسم الثلاثي. وكان سؤاله ذاك يُطرح أمامي للمرة الأولى في حياتي وأظنها الأخيرة، (نعم.. لا أعرفه) أكّدت له، لم يصدقني! ثم سألني عمّا إن دخلت حدود المملكة الأردنية من قبل، فأجبته أنني دخلتها قبل أربع سنوات كعابر سبيل للمملكة العربية السعودية، ودون أن يسألني أجبته بأنها كانت لأداء مناسك العمرة، أظنني حاولت بذلك استجداء تصديقه لي.

وبعد انتهاء الركّاب من كل الإجراءات بدأ أحد الموظفين الأردنيين بتلاوة أسمائنا الواحد تلو الآخر، وكان كل من يُذكر اسمه يخرج من أحد الأبواب الذي يؤدي به مباشرة إلى حافلة صغيرة تبيّن لاحقًا أنها لتقلّنا إلى فندق خاص بالمطار.

وللأسف لم يتبقَّ سوى ثلاثة أشخاص، وللأسف الشديد كنت من بينهم. طلب منّا الموظف الانتظار فانتظرنا، وبعد مرور بعض الوقت نادى الموظف على اسم "سامي" لم أكن أنا، دخل المدعوّ سامي إحدى الغرف وخرج بعد قرابة ربع ساعة، لم أجرؤ على سؤاله عمّا حدث معه، واستعضت عن ذلك بالانتظار. وبعد خروج سامي بقليل نادى ذات الموظف على اسم "سعيد"، وللمرة الثانية على التوالي لم أكن أنا، دخل المدعوّ سعيد ذات الغرفة وخرج بعد قرابة الخمس دقائق.

وأثناء انتظاري خروج المدعوّ سعيد ليحلّ دوري، وأثناء انسياب القلق على وجهي مجراه مجرى العرق، جلس أحدهم إلى جانبي وسألني بصوت خافت:

- أين وجهة سفرك؟ (بفضول).
- الجزائر. (أجبته، بريبة).
- ومن سيستقبلك هناك؟ (سأل، بفضول أكبر).
- أختي. (أجبته، بريبة أكبر).
- وما رقم هاتفها الذي ستتواصل معها من خلاله؟ (سأل، بخبث هذه المرة).

صدمني سؤاله الأخير! لم أُحَضّر نفسي لمثل هكذا سؤال! تساءلت في نفسي أن كيف لي تكوين رقم يخصّ الجزائر دون

معرفتي لمفتاح أرقام هواتفها؟

- لا أعرف رقم هاتفها. (أجبته، بتوتّر).

واختصارًا لسؤاله التالي المتوقع تابعت قائلاً:

- ستكون في استقبالي مع زوجها في المطار.

لم يتوقف عن طرح الأسئلة. تساءل مجددًا:

- وماذا إن لم تجدهما في استقبالك! (سأل، بخبث أشد هذه المرة).
- لا تقلق، سيكونا في استقبالي. (أجبته، وأنا على وشك الانهيار).

ابتسم، والأهم من ذلك أنه صمت، صبر صامتًا بضع ثوانٍ ثم طلب مني بوضوح قصّ حكايتي الحقيقية عليه، منوّهًا لذكر سبب اختياري لدولة الجزائر بالتحديد! ومن دون تفكير وبشكل لاإرادي وجدت نفسي أعترف له، اعترفت له اعتراف مُجرمٍ أو ما شابه.

أخبرته أنني عَمِلت في معملٍ زجاجيٍ عدة سنوات، وأن المعمل توقف عن العمل مع اندلاع الأزمة، مما اضطرني للخروج بحثًا عن عمل يقيتني أنا وعائلتي، ولمعرفتي بفن الجزائر في مجال الزجاج قررت زيارتها والبحث فيها عن عمل ما. وللأسف لم يصدقني ذاك الرجل، شعرت بذلك، والحق معه فأنا حتى لم أصدق نفسي! وتأكيدًا لشعوري بعدم تصديقه لي سألني ذاك الشخص المريب عن الزجاج بتفاصيل أدقّ، ولولا فضل إجاباتي الدقيقة لما بدأت أشعر باقتناعه.

ابتسم لي مرة أخرى ثم صمت مجددًا. صبر صامتًا بضع ثوانٍ أخرى ثم سألني عمّا إن كنت أملك من المال ما فيه كفاية لدخول الجزائر، أجبته على الفور: (بالطبع) وتساءلت في سرّي إن كان ينوي

سرقتي أم التسوّل مني، ونتيجتهما بالنسبة لمن هو في مثل وضعي سيّان. تابع: (لِمَ لَم تقل ذلك من البداية؟ خفت عليك الطرد من المطار، مطار الجزائر)!

ما زلت أذكرها، كأنها حدثت البارحة! أصابتني غصّة، كغصّة موت ربما، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، شعرت أنني كقطة من التي تحبها مريم، قطة بسبعة أرواح استنفدت للتوّ الروح الثانية من أرواحها السبعة!

وبعد بضع ثوان قاطع ذاك الشخص ألمي وهمّي وغصّتي قائلاً: (أستميحك عذرًا، سأكمل تنظيف الأرضية، لعنها الله إنها لا تنظف أبدًا)، ثم نهض وأمسك ببعض معدات التنظيف التي كانت معه من قَبل والتي "لفطنتي الشديدة" لم ألحظها معه. وبأتم برود تابع عمله وكأن شيئًا لم يكن! نعم، كان ذاك الرجل فضوليًّا ليس إلاّ! ولحمقي المُخجل ظننت أنني كنت معه في جلسة تحقيق. جلسة تحقيق أو ما شابه!

لم أستطع الحفاظ على هدوئي، نهضت من بعده وباغته من خلفه أعانقه وأُقبّل جبينه، وكان ذلك وسط اندهاشه، شعرت حينها بكوني أتربع على عرش السعادة، (لقد أخفتني) قلت له، ابتسم بلؤم وقال: (أعلم)، وأثناء عناقنا خرج أحد الموظفين والمدعوّ سعيد برفقته، وطلب من ثلاثتنا؛ أنا وسامي وسعيد التوجّه للحافلة.

سألت الموظف: (وأنا؟ ألا تريدون التحقيق معي؟) أجابني مبتسمًا: (تحقيق! لا داعي لذلك، إنه مجرد إجراء روتيني عشوائي، رافقتكم السلامة) ثم عاد داخلاً إلى مكتبه. نعم لقد كان مجرد إجراء روتينيّ وأنا من ظننته أصعب وأخطر مرحلة في رحلتي حتى تلك

اللحظة، (يا لذكائي!) قلت في نفسي وتنهدّت كمجرم فرّ من مصيدةٍ محكمة.

ثم صعدنا ثلاثتنا للحافلة وتوجهت بنا إلى فندق المطار، وكان أول ما فعلته في الفندق أن بحثت عن أسعد، سريعًا وجدته، كان قلقًا كمُمتَحَن دون أدنى تحضير، لا يعرف ما يفعل من أجلي، عانقني بدون مبرر وأخذت أقصّ عليه ما حدث معي بالتفصيل. ولاحقًا عملت ورفيقي على استخراج أموالنا من مخابئها، فكما قال ذاك الرجل؛ بدون إثبات امتلاكنا لخمسة آلاف دولار لن يسمح لنا من دخول أرض الجزائر. وكم كانت مهمة استخراجها صعبة! أخرجناها من بين ثنايا ثيابنا والخوف يتملكنا من إتلافها، سواء إتلاف الثياب أو الأموال، لوهلة ظننا أن استخراج الدفائن العميقة أسهل!

أشعر هنا بأن عليّ الإشادة بفندق مطار الملكة علياء، حقًّا كان رائعًا، استلمت غرفتي بشكل سريع واستحممت بأبطأ ما استطعت، ثم نصّبت المنبّه على هاتفي واستسلمت للنوم العميق، وفي الصباح الباكر وجدنا إفطارنا مثاليًّا في انتظارنا، لم يخطر على بالي قط أنه الأخير من نوعه بالنسبة إليّ لفترة ليست بالهينة. كان في قائمة الإفطار العديد من الأصناف، كم أحببت الأردن! حتى الكعك بالحليب كان موجودًا في القائمة وأنا من ظننتها أكلة شعبية يتناولها فقط من يرزحون تحت الفئة المسماة "الفقراء". وبعد الإفطار توجهنا إلى حافلة أعادتنا بدورها إلى المطار.

ومن هناك بدأت رحلة طائرتنا الطويلة، وأجمل ما كان فيها هو مرورنا فوق مدينة القُدس، عاصمة فلسطين، كم كان شعورًا ممتعًا وغريبًا أن تشاهد بعينيك ما سمعت عنه منذ صغرك وما زلت تسمع.

صدقًا، لمدينة القُدس مهابة عظيمة حتى من الجوّ. تذكرت جدتي وهي تقص علينا قبل عشرات السنين كيف أنها قَدَّسَت حِجتَها، أي بمعنى أنها مع وفد حجاج الشام زاروا مدينة القُدس لمدة يوم أو يومين أو ما شابه، وبذلك يُمنح الحجاج الحق بالقول بكونهم قد قَدَّسوا حِجّتهم.

ومن بعد القُدس ظهر البحر الأبيض المتوسط، كان الوقت نهارًا واستشعرنا بنيّة استطوالنا له، لذا أخذنا نتحدّث، أنا وأسعد الذي جلس بجانبي هذه المرة أيضًا، بهدف الهروب من التفكير بالمجهول الذي غامرنا بالإقبال عليه، المجهول الذي لا نعرف عنه إلاّ قصص الناجين منه أو صور الجثث التي انتشرت بسببه.

وفي غضون أقل من ساعة اجتاحنا الصمت. وأخذت أتمعن في منظر البحر وأنا أُحلق في السماء وقلّبت في صفحات الماضي، الماضي البعيد الجميل. نعم تذكرت رحلتي القديمة إلى مدينة لارنكا قبل عشرين عامًا، عشرين أو ما شابه.

## الجزء الأول..

- أتناول البسكويت بنفسي؟ (بائع البسكويت، بتضوّر جائع).
- نعم.. (بائع البسكويت، بتردد).
- لا.. (بائع البسكويت، بحزم).
- سأبيعها.. (بائع البسكويت، بثقة).

الفصل الثاني

# قبرص

أقلعت الطائرة من مطار دمشق الدولي؛ المطار الـــذي اعتـــدنا التوجّه إليه كل عام مرتين، مرة من أجل استقبال أخـــي المقـــيم في روسيا آنذاك، ومرة من أجل توديعه. اللافت للنظر أنه طوال كـــل تلك الاستقبالات والتوديعات التي تمت عبر العديد من الســـنين لم يخطر على بالي قط أنني قد أسافر مثله يومًا ما، وذلك لسببين؛ الثاني كلفة السفر الباهظة، والأول وهو الأهم؛ عـــدم وجـــود الســـبب الموجب له!

في البداية كان شعوري مغريًا لمجرد فكـــرة ســـفري إلى دولـــة أجنبية، وكان مغريّا أكثر لكونه بقصد العمل، أي بمعنى جمع المـــال الذي سيغير مجرى حياتي نوعًا ما، على الأقل بتقريبه موعد طرحـــي لفكرة زواجي أمام والديّ. (حان دوري) قلت في نفسي بزهوّ، وأنا أُموضع رأسي في منتصف مسند رأس المقعد خاصتي، وأثنـــاء ذلـــك ابتسمت للدلال الذي تمتعت به وأردفت قائلاً في نفســـي: (ولكـــن الفرق بين حالتي وحالة أخي أن طائرتي متوجهة إلى مطار لارنكـــا الدولي، أكبر مطارات قبرص).

في الواقع كانت قبرص آنذاك حديثي وزملائي اليـــوميّ أثنـــاء عملي في المدرسة "كمُعلّم وقتها"، كانت حـــديثنا قبـــل إعطائنـــا

للحصص الدراسية وبعد انتهائنا منها، وأحيانا أثناءها، وكنت شخصيًّا أعرف مجموعة لا بأس بها من المهاجرين العاملين في قبرص. كانت قبرص شغفنا، وما أظنني لأكون على تلك اللهفة للسفر إليها إن خطر على بالي ولو لمجرد خاطر أنني لاحقًا سأطأ بقدميّ العديد من العواصم الأوروبية. لاحقًا جدًا، بعد عشرين عامًا أو ما شابه.

كم طلبت الرزق في قبرص! سعيت إليها عن طريق العديد من الدروب المشروعة، وللمعلومة إن للسفر إلى قبرص دربين؛ أحدهما مشروع والثاني غير مشروع، وبالنسبة لي بالطبع اخترت الطريق الأول، الطريق الصعب! فوضعت خبرًا عند العديد من أصدقائي ومعارفي مفاده طلبي لفيزا عمل قبرصيّة، ولفيزا العمل هناك سماسرة خاصة يعملون على بيعها بأسعار "زهيدة"، فها أنا على سبيل المثال دفعت ما يفوق دخلي من عملي كمُعّلم لمدة سنتين تقريبًا من أجل فيزا عمل واحدة! نعم دخل سنتين كاملتين!

انتظرت فيزا العمل مطولاً، أعلم ذلك، ولكنني في المقابل لم أخسر شيئًا، وكانت نتيجة ذلك حصولي على فيزا عمل زراعية، للعمل بالتحديد في إسطبل خيول تعود ملكيته لرجل قبرصي يدعى أندرياس بابانيكالا، كان قد طلب أحد العمال ليعمل عنده على رعاية الخيول والاعتناء بإسطبله ومزرعته التي تحيط بالإسطبل.

وفور معرفتي لطبيعة المهمة الجديدة الموكلة لي، طلبت من أحد أصدقائي الذي كان يعمل قريبه في إسطبل خيول في منطقة صحنايا، التوسط لي عند قريبه ليعلّمني من خبرته في مجال العناية بالخيول ما يسمح به وقتي المتاح قبل سفري، وبالفعل قَبِل قريبه تلبية طلبي وعلّمني بكل ما له من صبر كيفية التعامل مع الخيول وكيفية تنظيفها،

وكيفية تركيب ما يدعى باليونانية "الشركس" المعروف باللجام باللغة العربية.

المؤسف في الأمر أنني لم أحسن التَعَلّم، لم تكن لـــديّ الرغبـــة وقتها، فرط الحماسة الآني أشعل عندي لاحقًا الندامة، لم تكن المـــرة الأولى التي ندمت عليها ولن تكون الأخيرة كذلك! غرّرت بـــــي فكرة السفر كما غرّرت بـــي ثقتي المطلقة بنفسي وبكوني ســـأتعلم هناك من كل بد بسهولة ومن تلقاء نفسي. ويا ليتني استطعت!

كانت رحلتنا بالطائرة جدّ قصيرة، أظنها أخذت نصف ساعة أو ما شابه، وهناك في مطار لارنكا كانت امرأة في انتظاري تحمل لافتة صغيرة كتب عليها اسمي بخطٍ عربيّ كبير ركيـــك، كانـــت تدعى سارة وكانت هيئتها رجوليّة نوعًا ما، وكان عملها مقتصرًا على البحث عن عامل مناسب من خارج قبرص فتستقدمه بدلاً من أن يقوم بذلك صاحب العمل بنفسه، وفي المقابل تحصل على أُجرةَ ماديّة من العامل ومثلها من صاحب العمـــل، أي بمعـــنى آخـــر "سمسرة".

الحق يُقال؛ استقبلتني سارة خير استقبال ثم أوصـــلتني بعربتـــها الخاصة إلى العاصمة نيقوسيا، الطريف في أمر عربتها أنني توجهـــت لركوبها من جهتها اليمين كما تجري العادة في بلادنا، وأثناء ذلـــك أحسست بنظرات سارة الغريبة وهي من خلفي وخصوصًـــا أثنـــاء إمساكي لمقبض باب عربتها، لوهلة ظننتها تريـــد فـــتح البـــاب لي، فشممت رائحة دلالٍ زائدٍ لم أتنعّم بمثله قط مما أخجلني مـــن تلـــك الفكرة، فقررت فتح الباب بنفسي ويا ليتني لم أفتحـــه إذ تفاجـــأت بوجود مقعد السائق أمامي!

(الآن فهمت) ثم ابتسمت لها خجلاً، (تبًا لها من بداية) قلت في نفسي، ثم ضحكت، فضحكت، أسعدني أنها ضحكت ولذلك خفّ خجلي. وفهمت منها ما طلبت بخصوص انتقالي للجهة الثانية فانتقلت على الفور، وفور جلوسي على المقعد طلبت سارة مني وضع حزام الأمان. كم خجلت من فكرة رؤية أصدقائي لي وأنا أضعه! فبشكل عام أحزمة مقاعد العربات في منطقتنا غير مستعملة، وأحيانًا غير موجودة في العربات من الأصل! أذكر أن الطريق الذي عبرناه يومها والذي كان أكثر من رائع استغرق منّا ساعة أو ما شابه من الزمن.

وفور وصولنا إلى نيقوسيا توجهت بي سارة إلى أحد المختبرات الطبية لتُخضعني إلى بعض الفحوصات. هكذا هي القوانين في بلادهم بهدف التأكد من خلوي من بعض الأمراض – لاحقًا بعد عشرين عامًا خضعت لها مرة ثانية – وبعد انتهائنا من ذلك توجهنا إلى أحد الفنادق ومكثت فيه ثلاثة أيام كانت بالنسبة لي من أجمل وأكمل ما يكون.

وفي اليوم الثالث من أيام ذاك الفندق الهادئةِ هدوءَ ما قبل العاصفة اصطحبتني سارة للقاء صاحب العمل المدعوّ أندرياس بابانيكالا، لاحقًا اكتشفت كم كان بابانيكالا مزاجيًّا وعصبيًّا ومن النوع شديد الغضب، المؤسف في الأمر أنني لم أكن أفهم إنجليزيّته، تمامًا كما لم أفهم يونانيّته، وبالطبع لم يفهم عربيّتي. كان بابانيكالا موظفًا في البلدية، وبالإضافة إلى ذلك كان يمتلك المزرعة ذات إسطبل الخيول التي يهتم فيها ببعض خيول الأغنياء، وتبيّن لي لاحقًا أن أصحاب هذه الخيول يقومون بزيارتها مساء الأحد من كل أسبوع.

كان لقاؤنا في مطعم ريفي جميل في وقت صادف كونه وقت الغداء، سألتني سارة يومها عمّا أريد تناوله بعرضها عليّ ثلاثة خيارات؛ السمك والدجاج والخنزير، سررت لتوفر الخيارات أمامي بالرغم من تخوّفي لتواجد الخنزير ضمن قائمتها. يسمّى لحم الخنزير عندهم الشيرو، نعم، الشيرو أو ما شابه. قلت بتوتر: (شيرو) وأشرت بسبابتي بمعنى "لا"، فهمت سارة رغبتي وأعادت عرض قائمتها بعد حذف الشيرو منها، فاخترت طبق السمك بسعادة وأخذت أترقبه، وفور وصول الطبق الخاص بي بدأت تمثيل الأكل بالسكين منشغلاً عن التركيز في نكهة الطعام التي أظنها كانت أكثر من مجرد رائعة، كان الطقس مثاليًا، ما زلت أذكر ذلك اليوم جيدًا.

وبعد انتهائنا من تناولنا للطعام توجهنا إلى مزرعة بابانيكالا بواسطة عربتين، أندرياس بابانيكالا في الأولى وأنا وسارة في الثانية، كان الطريق ساحرًا لدرجة أنستني ما فيّ من الخوف والرهبة من اختباري القادم، وكان مما أسعدني حقًا وجود تشابه ما بين ذاك الطريق وطرقات بلدي الخارجية، مع فارق التشبيه لمصلحة قبرص. تبقى للدول الغربية سطوتها في تصنيف الجمال.

تبعد المزرعة عن نيقوسيا قرابة العشرين كيلومترًا، وهي بعيدة عن بلدة أورانيس بيرا التي كان يسكنها بابانيكالا قرابة ثلاثة كيلومترات، كانت المزرعة عبارة عن ملعب كبير للخيول، في وسطه مبنى خاص مكون من عدة إسطبلات، لكل خيل إسطبل خاص ببابين؛ أحدهما يفتح على الملعب والثاني يفتح على وسط البناء.

وعندما وصلنا أخرج بابانيكالا مهرة صغيرة من أحد الإسطبلات، وسط استغرابي وترقب سارة لسير الأمور، وتَبِعَ ذلك

أن نظرت سارة لي نظرة تستجدي فيها الأمل ثم طلبت مني بما معناه أن أسير بالمهرة. في الواقع لم أشاهد مهرة من قبل قط، و لم أحسب أنني كنت سأراها يومًا ما! كانت جميلة للغاية وسريعة. ركّب بابانيكالا لجامًا على رأس المهرة وأعطاني طرفه دون إعطائي لأيّة تعابير من وجهه الجاف.

كان الموقف صعبًا للغاية، حاولت التحرك عدة مرات ولكن من دون جدوى، كم ندمت على استهتاري باسطبلات صحنايا! وفجأة وعلى حين غرّة بدأت المهرة تسير بي دون أن أستطيع إيقافها، وبعد مرور دقيقة ولربما ثلاثين ثانية.. ولربما عشر ثوانٍ أسقطتني، نعم أسقطتني المهرة أرضًا! (تبًّا) قلت في نفسي ألف مرة.

اشتاط أندرياس بابانيكالا غضبًا على الفور، وأخذت سارة تحاول تهدئته، لوهلة ظننته سيقتلها. ولِمَ سيقتلها؟ بل سيقتلني أنا، فهي البريئة وحسبت نفسي أنا المجرم. حاولت سارة مخاطبتي أثناء صراخ بابانيكالا دون أن أفهم ما ترمي إلى قوله. كان بحاجة لبضع دقائق ليهدأ، كانت دقائق عصيبة على سارة، وعصيبة جدًّا عليّ.

اختار بابانيكالا إحدى غرف مزرعته وقام بفتح بابها على وسعه وأخذ يحدثني مشيرًا إليها، فهمت منه أن انتظرهما فيها بينما سيخرج برفقة سارة بعض الوقت. كما استنتجت أنها ستكون غرفتي طوال فترة إقامتي في المزرعة في حال قبلني للعمل في مزرعته، كانت الغرفة في قمة النظافة والترتيب وفيها كل ما قد يتمناه أمثالي، نافذة مُطلة وسرير مريح وثلاجة وتلفاز والأهم من كل ذلك دورة مياه خاصة. ولكن للأسف منعني حنقي وغضبي على ما آل إليه اختباري مع المهرة من الاستمتاع الأوّلي بالغرفة، وفي أثناء انتظاري لعودتهما

أخذت قرارًا بالذهاب للعمل بالأعمال الحرة، كالبناء مثلاً، أعمال خَطِرة – من باب ترحيل كل عامل تمسك به الشرطة المحلية بدون فيزا أعمال بناء – ولكنها لا تحتاج للخبرة كما أن دخلها المادّي أعلى بكثير.

عاد بابانيكالا وسارة بعد ساعتين أو ما شابه، وكان برفقتهما رجلٌ لبنانيّ، جاؤوا به كمترجم لكونه يتكلم العربية، تكلموا في ما بينهم ثم سألني اللبناني عن سبب قدومي إلى هنا بالرغم من انعدام خبرتي بالخيول، فأجبته بكوني صاحب خبرة قليلة ولكن ليس مع المُهر.

ترجم اللبناني إجابتي لسارة وبابانيكالا وتابعوا النقاش في ما بينهم إلى أن انتهوا وأخبرني اللبناني بكون بابانيكالا اتفق مع سارة على تجربتي لمدة شهر، وأن سارة ستحاول في حال فشلي في إثبات نفسي البحث لي عن عمل آخر، كما أعلمني أنني قد أضطر في أسوأ الأحوال للعودة إلى بلدي.

في الواقع تُعدّ مدة الشهر مدة لا بأس بها للتعلم، ولكن مشكلتي كانت في من سيُعلمني؟ بدأت أتعلم بنفسي والقليل بمساعدة بابانيكالا عن تنظيف الخيول وكيفية إطعامها، ومقدار طعامها الصباحي والمسائي، ومواعيد إخراجها من إسطبلاتها إلى الملعب، وبعد ذلك تنظيف الملعب من مخلفاتها. ولحظي السعيد – لاحقًا آمنت بسعادة حظي – كان بالقرب من المزرعة حيث كنت مزرعة خاصة تعود ملكيتها لصاحبة أحد الفنادق في مدينة نيقوسيا وكانت تدعى السيدة باراسكيفوه، وبالمناسبة تعني كلمة باراسكيفوه في لغة أهل قبرص يوم "الجمعة".

كانت السيدة باراسكيفوه تربـــي في مزرعتها الماعز والأرانـــب والعصافير والببغاء وحتى الطاووس! كانت تفعل ذلك كمجرد هواية لا أكثر. كانت تأتي كل يوم من الساعة التاسعة صباحًا حتى الرابعـــة عصرًا لتعتني بمزرعتها. وكم كانت لطيفة السيدة باراسكيفوه معــــي، وكانت كريمة جدًا معي، كانت تجلب لي الكثير من الحاجيات مـــن نيقوسيا، وداومت على زيارتي بين الفينة والأخرى وأخذت تعلمـــني التعامل مع الخيول بكل لطف، وكان بابانيكالا صديقًا لها فسمح لي بزيارتها ومساعدتها من بعد انتهائي من أعمالي في مزرعته، وعنـــدها كانت تغرقني بالمأكولات القبرصيّة وخصوصًا الشبيهة بالمـــأكولات العربية منها كالكوبس (الكبة) والمزيفة (الأرز مع العدس البني والبصل المقلي) والكوبوبيا (ورق العنب المحشوّ) والأحب إلى قلبـــي القبرصية لوكوداديس (العوّامة أو لقيمات القاضي).

وأجمل ما في الأمر أنني أثبت جدارتي خلال شهر التجربة، وبتّ نوعًا ما كصديق للرجل وزوجته وزواره الأثرياء. أحببـــت عملـــي وأحببت أكثر المال الناتج عنه، واستمررت معه لمدة سنتين تعلمـــت أثناءها لغةً كافيةً للتخاطب مع سكان منطقة المزرعة. وطوال تلـــك الفترة كنت أتواصل مع عائلتي عن طريق بطاقات اتصال عمـــوميّ، كنت أكلمهم بين الفينة والأخرى، وخصوصًا في أيام الأحد بسبب انخفاض سعر تكلفة الاتصال.

وذات يوم أحد اصطحبني بابانيكالا إلى نيقوسيا، بالتحديـــد إلى الفندق الذي تمتلكه السيدة باراسكيفوه، وكم أذهلني ما وجدته! كان فندق السيدة منحلاً أخلاقيًّا، منحلاً بمعنى الكلمة! قد يكون الأمـــر عاديًّا في قبرص ولكنني لم أتوقعه قط، وخصوصًا من ســـيدة لطيفـــة

كباراسكيفوه، وأثناء ذهولي بطبيعة المكان اقتربت مني فتاة سمعت لاحقًا بكونها هنغاريّة، كانت قد بعثتها السيدة باراسكيفوه خصيصًا لي من باب المحبة، وكان معها مفتاح لإحدى غرف الفندق. توترت بشدة وبالطبع كان توتري بسبب عدم معرفتي لكيفية رفضي لمثل تلك الهدية، وأثناء ذلك سحبتني الهنغاريّة إلى الغرفة مما سبب لي التوتر أكثر وأكثر.

أذكر أنني توترت يومها إلى درجة قولي لها: (يا لك من سمينة!) بدلا من قولي: (يا لك من جميلة!) ألم أخبركم من قبل أنني ذو حظ سعيد؟ – سعيد بالنسبة لي على الأقل – وعلى الفور أبدت الهنغاريّة غضبها وخرجت من الغرفة مسرعة وأظنّها قامت بشتمي، لحقتها كي أعتذر لها عمّا قلته في حقها ولكنني وجدتها وقد نقلت ما حدث بيننا لكل من بابانيكالا وباراسكيفوه. نظر بابانيكالا إليّ نظرة تكاد تنطق بالضحك ثم طلب مني الخروج من الفندق وانتظاره في العربة.

خرجت كما طلب مني بابانيكالا وقبيل دخولي العربة لمحت هاتفًا عموميًا قريبًا مني، فخطر على قلبي مهاتفة والدتي، وبالفعل هاتفتها، وشعرت بقلقها مع أول كلمة نَطَقَت بها.

– أين أنت؟ (أمي، بقلق ودون حاجةٍ لأيّة مقدمات).

– أُحدثك من هاتف عموميّ على رصيف أحد الطرقات. (أجبتها).

– كنت مغلقة عيني منذ برهة.. شاهدتك.. كنت تهوي! (تابعت، بقلب أم).

# من بيروت إلى الجزائر
## (التتمة)

ولحظتها شعرت بنفسي أهوي حقًا، وأنني أرتطم بالأرض، خُضّ رأسي وفَتحت عيني ووجدت نفسي في مقعد الطائرة وإحدى المضيفات تتأكد من ربط الجميع لأحزمة مقاعدهم، بينما الأخرى تتأكد من فتح ستائر النوافذ على وسعها استعدادًا للهبوط إلى مطار هواري بومدين "مطار الجزائر الدولي". نعم لقد كنت نائمًا أسترجع ذكرياتي الأوروبية القديمة، وفور استيقاظي أخذت أحلم بصناعة ذكريات جديدة أفضل منها، وكم تمنيت أن تكون في القريب العاجل لا الآجل!

هبطنا إلى أرض الجزائر، وفور دخولنا للمطار طلب مني أحد موظفي المطار رؤية الخمسة آلاف دولار التي أملكها، وكذلك فعلوا مع أسعد، ولا أدري إن فعلوا ذلك مع البقية أم لا، ولكنني أظنهم فعلوا، وبعد ذلك ختم الموظف جوازات سفرنا وخرجنا.

ومع خروجي من آخر الحواجز الأمنية بدأت أُدخن، دخنّت بنهم شديد، كنت قد نسيت أننا في شهر رمضان المبارك وأن الجميع تقريبًا صائمون، ولولا مواجهتي لعشرات الوجوه الغاضبة بسبب إفطاري علنًا ما تذكرت ذلك، تنبهّت لخطأي وأطفأت السيجارة

وحملتها بمنديل وتخلصت منها، كان منظر الوجوه الغاضبة مرعب لدرجة أنني اعتذرت من أحدهم حتى دون أن يتكلم معي ولو مجرد كلمة واحدة.

أجمل ما حدث معي في مطار بومدين أنني وجدت في الخارجِ جهة الجموع المنتظرة العديد من الأشخاص يحملون لوحات كتب عليها بالعديد من اللغات العديد من الأسماء، وعندها تساءلت في نفسي عن الموعد الذي سأنتظر فيه عائلتي في أحد مطارات القارّة الأوروبية! بالطبع في حال وصلت إليها.

# قبرص

## (التتمة)

- كنت مغلقة عيني منذ برهة.. شاهدتك.. كنت تهـــوي..! وبعدها بقليل أنقذك أحدهم. (أمي).

كم أدهشني حديث أمي! وكم فرحت لوجودها بالقرب مـــني رغم المسافات الشاسعة التي فصلت ما بيننا. بالفعل قلب الأم لا ينام عن مراقبة أبنائه.

تابعت حياتي في المزرعة دون جديد يذكر، ومع نهاية سنتي الثانية فيها حاولت الحصول على عمل أفضل ولكن من دون جدوى، وأثناء بحثي عن عمل آخر اكتشفت كون دَخلي أقل بكثير مما يحصل عليـــه العمّال الآخرون في الأعمال الأخرى، كمـــا اكتشـــفت أن عـــدد ساعات عملي أكثر مما يسمح به القانون في قبرص، كما أنه دون أي مقابل إضافي.

وفور معرفتي بذلك رفضت استغلال بابانيكالا لي وطلبت ترك العمل عنده بالتراضي ولكنه رفض، وطلب مني الاستمرار لســـنتين إضافيتين كما كان الاتفاق بيننا، وخوفًا من غـــدري لـــه، أخفـــى بابانيكالا جواز سفري ليمنعني من الهرب، ومع تصرفه الســـيئ ذاك ازدادت رغبتي في العودة إلى وطني وعافت نفسي قبرص بمـــا فيهـــا،

فقررت مسايرته وأقنعته بعدولي عن فكرة ترك العمل لديه.

وبعدما شعرت باطمئنانه من ناحيتي، أرسلت كل حاجياتي إلى صديقٍ تعرفت إليه في نيقوسيا بهدف العناية بها حتى عـــودتي إليـــه، وطلبتُ من بابانيكالا جواز سفري بسبب نيّتي زيارة نيقوسيا، فوثـــق بـــي، وفور حصولي على جواز السفر انطلقت مباشرة إلى المطار في لارنكا وعدت أدراجي مستغلاً أول طائرة متاحة متجهة إلى العاصمة دمشق.

هاتفت بابانيكالا فور وصولي دمشق وأخبرته بكوني بـــتُّ في دمشق وأنني لست بعائد، وهو بدوره حاول إقناعي بالعودة فرفضت، وأبدى غضبه وأبديت أسفي وأقفلت المكالمة الهاتفية وأقفلت معهـــا فصل قبرص في حياتي إلى الأبد.

الجميل بالأمر أنني بعد مرور شهرين تمكنت من خطبة إحداهنّ والتي هي الآن زوجتي ووالدة أبنائي ووالدة مريم، مريم صغيرتي الـــتي تحب القطط.

الفصل الثالث

# غدامس

كان من المفترض أن ينتظرنا شخص مـــا في مطـــار الجزائـــر، بالتحديد في قاعة انتظار المسافرين القادمين حاملاً لوحةً كُتبت عليها أسماؤنا "أسعد وعيسى"، هذا ما أكده لنا منُسق رحلتنا الذي أخـــذ مبلغًا كبيرًا من المال لقاء أجور الطيران والفنادق والأهم من كل ذلك التنسيق! ولكننا في المقابل لم نجد أحدًا، كان الوضع مقلقًا للغايـــة إذ كانت كل آمالنا متعلقة بذاك الشخص المنتظر، فهو الوحيد الـــذي يعرف ما علينا فعله، وهو الوحيد الذي يعرف المكان الـــذي علينـــا الوصول إليه.

بحثنا عنه مطولاً، عن مَن مِن المفترض أن ينتظرنا، ثم انتظرنـــاه دون جدوى. لم نجد أفضل من ابتياع شريحة هاتفٍ نقال جزائريـــة، والاتصال بمنسق رحلتنا في دمشق، وبالفعل اتصلنا به، وسألناه عـــن الشخص المنشود، وبدون أدنى تفاعل إنساني أعطانا رقم هاتفه وأقفل الخط في وجهينا، ولولا اطمئنانه لكوننا بِتنا في الجزائر لما أعطانا إياه، فوجودنا في الجزائر لا يشكل أدنى تهديد لَه وهو يرتع في سوريا.

هاتفنا ذاك الشخص ومن حسن حظنا أنه أجابنا، وبأدنى بـــرود ممكن طلب منّا انتظاره قرابة النصف ساعة كي يتمكن من الوصـــول إلينا، تساءلنا عمّا كان سيحدث لنا لو لم يخطر على بالنا مهاتفتـــه!

وأثناء انتظارنا له جاء الرد على تساؤلنا الساذج إذ تقدم نحونا الكثيرون ليسألونا عمّا إذا كنّا نبحث عن وسيلة للذهاب إلى السيّد صالح مقابل أجرةٍ مقدارها مئة دولار عن كلٍّ منّا. تساءلنا أحقًا مئة دولار لمجرد إيصالنا إلى السيّد صالح! شتمت منسق سفرنا في سرّي كما شتمه أسعد في العلن، فالمصيبة أن كلاً منّا قد دفع له مبلغ سبعمئة دولار لمجرد توفير ذات الخدمة "إيصالنا إلى السيّد صالح" وما أدراكم ما السيّد صالح!

وأخيرًا وصل المنتظر، كان شابًا جامعيًّا، وتبيّن أنه فلسطيني الأصل، امتهن العمل في سلك تهريب البشر منذ فترة قصيرة، واختار هذا السلك بالتحديد لكونه مربحًا أكثر حتى من فكرة الهجرة والعمل في أيٍّ من الدول الأوروبية. تساءلت في نفسي كم اعتاد البشر لعن تجار الحرب ولكنهم لم يعتادوا لعن تجار البشر، ترى لِمَ ذلك؟ أليسوا أكثر خِسة من أولئك الملعونين؟ أو أنهم يساوونهم ذات الخِسة على الأقل!

وكانت خطة هذا الجامعيّ بسيطة للغاية. وهي مجرد نقلنا بواسطة عربة أجرة إلى حافلةٍ تقلّنا بدورها إلى الحدود الجزائرية الليبية – هذا ما قاله لنا – كان بإمكاننا فعل ما فعله هذا الجامعيّ مقابل مبلغ زهيد، ولكن عدم معرفتنا بتفاصيل سير عملية تهريب البشر أوقعنا في شباك الاستنزاف المالي من قبل أولئك المهربين.

ومما زاد الطين بلّة أن الشاب أعلمنا قبيل رحيله بوجود فندق يبعد قرابة سبعمئة متر من آخر محطة للحافلة، وكخدمةٍ إضافيةٍ منه عرض علينا حجزًا فيه لشخصين، وكمقابل لهذه الخدمة طلب من كلٍّ منّا مئة دولار إضافيّة، (مئة دولار فقط لا غير) حسب قوله،

ومن باب زرع الثقة في نَفسَينا أعطانا أوراق حجز الفندق لنتأكد منها، وفي المقابل أعطيناه المئتي دولار دون أدنى تردد ورحل. وبذلك انتهى دوره القصير والمكلف في قصة هجرتنا.

انطلقت بنا سيارة الأجرة إلى المكان الذي توجد فيه الحافلة، لم تأخذ الكثير من الوقت، وهناك انتظرنا حتى اكتمل عدد الركّاب. كان معظم الركّاب مثلي سوريّين وكان بعضهم جزائريين، جلّهم من الشباب. قد تتساءلون عن سبب التوجّه إلى ليبيا بدلاً من الانطلاق المباشر من الجزائر؛ وتفسير ذلك بسيط إذ أن الدولة الجزائرية تمنع بشكل قطعي انطلاق المهاجرين منها على عكس الحدود الليبية المفتوحة على مصراعيها لكلٍ من التجار وبضاعتهم الرخيصة والتي هي "المهاجرون".

انطلقت بنا الحافلة باتجاه الجنوب العديد من الساعات، إحدى عشرة ساعة أو اثنتي عشرة أو خمس عشرة، لا أذكر كم مضت بنا بالتحديد، وكل ما أذكره أننا وصلنا إلى المكان المنشود مساءً، وكان صحراويًّا، وفيه وجدنا مبنى صغيرًا أشبه ما يكون بفندق، لاحقًا اكتشفنا أنا وأسعد أنه ذاته الذي دفعنا لقاء غرفةٍ مزدوجةٍ فيه المئتي دولار. فما كان منا إلاّ أن توجهنا لشبه الفندق ذاك وهناك تبين لنا أن الحجز الذي ابتعناه من ذاك الشاب وهميّ، واضطررنا لدفع خمسة وسبعين دولارًا إضافيّة عن كلّ منّا مقابل المبيت في إحدى غرف الفندق المزدوجة.

(ما زال الأمر مقبولاً) قلت في نفسي رغم الجوع الذي بدأ يفتك بنا، ومن حسن حظنا أن بعض ركّاب الحافلة قاموا بتوزيع الطعام على نزلاء ما يدعى بالفندق، فأكلنا مع الآكلين، (ما زال في

الدنيا خير) أضفت قائلاً في نفسي، وبعد انتهائنا من تناول الطعام تفرغنا بشكل كامل للقلق عبر التساؤل: (ماذا بعد؟).

وأثناء قلقنا وتخوفنا من المرحلة القادمة تسربت إلينا تطمينات من بين جموع ركّاب الحافلة لم ندرِ مقدار صحتها، مفادها أن مجموعة من العربات في طريقها إلينا لتوصلنا إلى الحدود التونسية الليبية الجزائرية المشتركة، وبذلك تبيّن لنا كذب ذاك الشاب الجامعي. وبعد بضع ساعات إضافية من الترقّب وصلت العربات وتلاشى الترقّب وكأنه لم يكن، وظهر أحد الأشخاص من إحدى العربات، قيل لاحقًا إنه أخو الصالح واسمه سامح، وطلب منّا الصعود على متن العربات بسرعة، وللأسف تم ذلك دون أدنى تنظيم، هجمنا على العربات بشكل همجي وتموضعنا فيها بعضنا فوق بعض، وانطلقنا عشرين كيلومترًا أو ما شابه إلى أن وصلنا إلى منطقة أكثر عزلة.

كان في ذاك المكان منزل قديم شبه بالٍ مكون من أربع غرف، حوله سور مرتفع نوعًا ما وتظهر من خلفه حافلة كبيرة، تقدم سامح وطلب منا أربعمئة دولار لكل من يريد الوصول إلى ليبيا، ومن منّا من لم يدفع! وبالرغم من عدم اضطراره ليكون لطيفًا معنا، كان سامح كذلك، قدّم لنا الماء والطعام، ثم طلب منّا التوجّه للحافلة الموجودة خلف السور، وللأسف هجمنا عليها كما هجمنا على العربات من قبل، وأثناء تكوّمنا أمام الباب ألقى سامح علينا خطبة قصيرة للغاية؛ كانت مجرد ثلاثة جُمل، ثلاثة جُمل فقط: (حمدًا لله على سلامتكم، التدخين ممنوع قطعيًّا في الحافلة، رافقتكم السلامة)، ثم أضاف: (لا أريد سماع أيّة أسئلة)، كانت الخطبة قصيرة جدًا،

ولاحقًا تبيّن لنا جيدًا مدى أهميتها! المهم أننا ركبنا الحافلة وانطلقت بنا، وكان الطريق مختلفًا اختلافًا كليًّا هذه المرة.

كان انقضاء كل دقيقة في تلك الحافلة يعني توغّلنا في الصحراء أكثر وأكثر، كان لديّ فضول شديد لمعرفة درجة الحرارة في الخارج، وكم حمدت الله على كون الحافلة مكّيفة. لا تستهينوا بالصحراء فهي على قدر جمالها مُرعبة، إنها بحق بحر شاسع الرحابة جزيئاته الرمال المتوهجة. نسيت همومي أو بالأحرى مخاوفي وجلست أتفكّر في الصحراء وخطرت على بالي حادثة الهجرة النبوية، ثم بدأت أستذكر ما أعرفه من التاريخ وأخذت أتخيل المعارك التي سمعت عنها. ولم يقطعني عن ذلك سوى مشاهدة الجِمال، صدقًا للجمال منظر عظيم، شاهدت الجمال من قبل ولكن ليس بذاك الحجَم. تفهّمت أكثر ضرب الله تعالى به المثل، كم هو لائق به لقبه سفينة الصحراء. في ذاك الطريق أيقنت كم يسيئ الإعلام بتصويره للصحراء!

وبعد انقضاء أربع أو خمس ساعات أعلن سائق الحافلة عن استراحة قصيرة في واحة بسيطة، وكانت الواحة عبارة عن مبنى صغير حوله نبع ماء فقير، ولسوء حظي كنت أول الراغبين في النزول، نزلت أول درجة من درجات الحافلة وفور نزولي شعرت بوجهي يحترق فاندحرت للخلف وتركت المجال لأي انتحاريٍّ آخر غيري يرغب بالنزول من حيث نزلت، لم يستطع أحدنا النزول من شدة الحرّ إلى أن اقترح أحدهم بلّ كلٍّ منّا منشفة صغيرة بالماء ومن ثم نضعها على رؤوسنا قبيل نزولنا، الجميل في الأمر أن تلك الخطة نجحت رغم بساطتها!

انتهت الاستراحة بسرعة خاطفة وتابعنا رحلتنا بهدوء سلس لم يدم طويلاً إذ فاجأنا سائق الحافلة عبر مكبر الصوت بسؤالٍ غريبٍ لم يتوقعه أيّ منّا: (من منكم يدخّن؟) كان سؤاله موجّهًا للجميع مما سبب فزعي رغم براءتي! بالأحرى أفزعنا جميعًا رغم براءتنا، في الواقع لم أشتم أيّة رائحة، لا رائحة دخان ولا غيرها، كما لم أسمع أيّة إجابة من أيّ من الركّاب مما أغضب السائق وجعله يوقف الحافلة واستدعى من سامح النهوض صارخًا: (ألم أخبركم أن التدخين ممنوع قطعيًّا!) ثم تابع بعد برهة: (سأقتله).

في الواقع اعتاد كل منّا في حياتنا اليوميّة على سماع كلمة القتل، حتى قبل اندلاع الأزمة في وطني، كانت هذه الكلمة كثيرة الاستخدام سواء في البيت أو المدرسة أو الشارع أو أي مكان، ومعناها المتعارف عليه هو التهديد الشرس بالضرب، وفي أسوأ الحالات المبرح منه، ولكن بالطبع دون إزهاق أيّة أرواح. كنّا عندما نتعارك بعضنا مع بعض أو مع أبناء الحارات المجاورة نتوعد بعضنا بالكثير من القتل.

ولكن كان لتلك الكلمة في ذاك الوقت معنى آخر "سأقتله!" يا لها من كلمة! الغريب أن أخا الصالح قام بتهديدنا رغم كون معظمنا من ذات البلد وأصحاء الأبدان، على عكسه وسائق الحافلة اللذين كانا وحيدين وببدنين متوسطي الصحة!

مرّت علينا دقائق عصيبة ظنناها الأسوأ، ولكنها انتهت بشكل مفاجئ عندما قرر سائق الحافلة متابعة الرحلة، كم أبهجنا ذلك ولكن ليس طويلاً! فبعد مرور ساعة أو ما شابه أوقف السائق الحافلة مرة أخرى ثم استدار لنا وتساءل بحدّة أكثر من المرة السابقة: (من

يدخّن؟) وبشكل تلقائي أخذنا جميعًا نتلفت يمينًا ويسارًا وذلك لسببين؛ الأول البحث عن المجرم، والثاني إبعاد التهمة عن أنفسنا، و لم يسفر تلفّتنا عن شيء إذ بالفعل لم نجد مُدخنًا في الحافلة.

وكم تساءلت حينها أن كيف للمرء التصرف بلامبالاة إلى ذاك الحد، حد المقامرة بالروح! أنا بطبيعتي مُدخّن وكثيرون غيري ممن كانوا على متن تلك الحافلة مدخنون وجميعنا استجبنا للأوامر، إلاّ هذه الشخص المتستر عن نفسه أبى الاستجابة وقرر الاختلاف والتحدي الأخرق.

وبعد مرور دقيقة أو دقيقتين أضاف سائق الحافلة بهدوء جملة مفادها بأن الحافلة لن تتحرك مجددًا في حال لم يعترف المدخن بنفسه، أو على الأقل أن يشي أحدٌ ما به، اعتقدنا أنه يمازحنا أو ما شابه، ولكن للأسف تبين لنا أنه يقصد ما قاله ولا يمازحنا، كان السائق في كامل جديّته وبالفعل لم تتحرك الحافلة! ساد الصمت الحافلة سيادةً لم ينازعه عليها أحد لمدة تجاوزت النصف ساعة، أذكر أنني شعرت بها كنصف يوم أو ما شابه، و لم تكن لتنتهي لولا مداخلة أحد الركّاب الجالسين في أقصى الخلف بقوله: (أنا المدخن ما المشكلة؟ تابع رحلتك).

في الواقع لم أستغرب اعتراف المُدخن بقدر استغرابي من تعاليه والفوقيّة التي ظهر عليها أثناء خطابه، تمنيت لو أصفعه عدة صفعات؛ واحدة بسبب تدخينه، وثانية بسبب التأخير الذي نالنا بسببه، وثالثة أو ما شابه بسبب تعاليه وفوقيّته.

التفت السائق إلى الخلف ليجد أحد الركّاب منتصبًا وسط الحافلة، فسأله إن كان حقًا هو المدخن أم أنه يكذب بهدف التستر

على أحدهم. الغريب أن الراكب أجابه ببرود تام بكونه المدخن بالفعل، وكأنه يفخر بفعلته! ابتسم السائق للمدخن فبادله المدخن الابتسامة ثم توجه للجلوس في مكانه، استدرك السائقُ المدخنَ قبل جلوسه وطلب منه ببرود طلبًا بدا وكأنه صغير للغاية مفاده نزوله من الحافلة، ثم بعثر نظره علينا جموع ركّاب الحافلة وقال: (لن تتحرك الحافلة وهذا الأحمق فيها).

كان الموقف صعبًا للغاية، فنزول أيّ منّا معناه انتحاره، جوعًا أو عطشًا أو ما شابه، لذا طالب جميع ركّاب الحافلة المدخن الذي أجرَمَ ودخّن والذي بدا الارتباك جليًّا على محياه الاعتذار من السائق، وما كان منه إلاّ أن اعتذر على الفور، اعتذر مرة ومرتين وثلاثة، ولم يقتصر الأمر على الاعتذار بل وبدأ يرجوه الصفح من قعر بئر الذل الذي أسقط نفسه فيه، كما طلب من السائق السماح له بتقبيل يديه وقدميه، ثم التفت صوب سامح وطلب منه ذات الطلب، ولكن توسلاته جميعها صُدّت وارتدّت عليه من دون جدوى. إذ كان رد فعل السائق مقتصرًا على مطالبته الإسراع بالنزول، ولكن المدخّن لم ييأس بدوره وتابع رجاءه بحرقة أكبر وبرتمٍ أسرع، وأثناء ذلك توسطت جموع الركّاب لتسوية الموقف بين الطرفين، واستمرت وتيرة التوسطات مرتفعة حتى آمن آخر الركّاب بأن كل ما يفعلونه بات بالفعل من دون جدوى.

كان المؤسف في الأمر أن قضية ذاك المدخّن أخذت نصف الساعة، نصف الساعة برسم نصف دهر! أمّا المبهج فيها أن محصلتها النهائية كانت موافقة السائق على متابعة المسير مقابل إعلان سامح عن عدم نيّته لسماع أيٍّ من أسئلتنا، إذ كنّا بين الفينة والأخرى نسأله

رغم تنبيهه المسبق لنا بعدم سؤاله. بالنسبة إليّ لم أستغرب سوى من أمر واحد ألا وهو عدم صفع السائق لذاك اللامبالي. و لم أكن لأعلم أن الصفع سيوجه لاحقًا لشخص ما غيره، شخص ما بريء تمامًا!

تابعنا رحلتنا بصمت وأثناء ذلك كنّا جميعًا نسترق النظر صوب ذاك المدخن الذي انتقل من وضعية البطل الجريء الذي خالف الأوامر واعترف بفعلته، إلى وضعية المنهزم الذليل متسوّل الغفران، كانت مهزلة لا داعي لحدوثها تلك التي وضع نفسه فيها ذاك البطل دون سبب يُذكر.

خيّم علينا الظلام مع مرور الوقت تدريجيًّا، وأظننا مشينا نصف يوم أو ما شابه، أذكر أنني شعرت يومها أن الطريق الذي دخلناه أبديّ لدرجة أنني تفاجأت بتوقف الحافلة! كنّا قد وصلنا إلى منطقة تقع بمحاذاة الحدود المشتركة الليبية التونسية الجزائرية، ومع وصولنا تحدث المدعو سامح مع أحدهم عبر هاتفه وطلب منه القدوم لاستلامنا، شعرت حينها بشعور طرود البريد، كنت مثلها؛ مثل الطرود، ولكنها من يد ساعي بريد لآخر، أما أنا فمن يد مُهرّب لآخر، وكم حسدت الطرود التي تصل إلى مبتغاها وتأملت أن ينتهي أمري بالوصول لمبتغاي كما تصل هي.

وبعد قرابة نصف ساعة ظهرت أمامنا ثلاث عربات صغيرة، وبعجالة فائقة طالبنا سائق الحافلة بحمل أمتعتنا والتوزّع على العربات الثلاث الحديثة الظهور، صمت السائق برهة ثم تابع وطالبنا بإغلاق هواتفنا النقالة، وكم تفاجأنا بالبرودة الشديدة التي واجهتنا لحظة خروجنا من الحافلة. وفي غضون دقيقة أو ما شابه توزّعنا على العربات كما أُمرنا، تمامًا بنفس همجيّة توزيعتنا السابقة، الجدير بالذكر

أن فكرة استيعاب العربات لكامل ركّاب الحافلة فكرة لا تقل عن كونها معجزة.

وأتبع ذلك أن انطلقت بنا العربات صوب قرية حدودية فقيرة مكونة من بضعة بيوت حولها القليل من الأشجار. اختار المهربون أحد البيوت المهجورة ونزلنا في باحتها، وكان من الملفت وجود عدّة أنوار قريبة منّا بعض الشيء، لاحقًا تبيّن لنا أنها المنطقة الحدودية المنشودة.

أذكر أن أحد السائقين قام بتهنئتنا بمناسبة وصولنا إلى تلك المرحلة من مراحل الهجرة، لوهلة شعرت في كلامه بوضاعة قيمتنا البشريّة، أقصد قيمتي ومن معي من ركّاب الحافلة. كما طالبنا بخلع كل ما نرتديه من ملابس فاتحة اللون واستبدالها بأخرى غامقة، وأعلمنا بأننا على وشك السير في الصحراء وعبور الحدود.

بدّل البعض من ثيابهم في العراء وكنت من بينهم، ومن بعد انتهائنا من ذلك بقليل ظهر الصالح أمامنا شخصيًا؛ كان أربعينيًّا سمينًا أصلع، وبالطبع مُسلّحًا، ظهر أمامنا ليعلمنا بفخر بأنه بات يملك سفينته الخاصة وأن على كل من يرغب بالصعود عليها دفع ألف ومئتي دولار (فقط لا غير!) على حسب قوله، وكمبادرة منه بعد ذلك قام رجاله بتوزيع بعض الأطعمة البسيطة علينا في محاولة لإحراجنا لعدم رفض دعوته "الباهظة" على سفينته، وبالطبع دفعنا!

وبعد استراحة قصيرة تناولنا أثناءها ما تم توزيعه علينا من الطعام، تم توزيعنا كثنائيات، بشرط إمساك كلٍّ من الثنائي بيد رفيقه استعدادًا للانطلاق صوب الحدود الليبية. أمسكت بيد رفيقي واستعديّنا كما أُمرنا، ثم بدأ الركب بالسير وسرنا معهم يكتنفنا

صمتٌ تام ومن حولنا توزع مرافقو الصالح الذين تبيّن أنهم يحفظون المنطقة عن ظهر قلب.

أسوأ ما كان في ذاك الطريق أن الأرضية التي سرنا عليها كانت عبارة عن بحرٍ عارمٍ من صخورٍ بارزةٍ حادّة الأطراف ومتباينة الأحجام، سرنا عليها بصعوبة بالغة ساعة من الزمن أو ما شابه، في ذات الصمت الذي بدأنا به لا يشوبه سوى أصوات ارتطام البعض بالأرض، الرؤوس، الجوانب، الأحشاء، الأيدي، الأقدام. وللأسف كان ليلتها القمر يمارس لعبة الخفاء، تبًّا لمن اختار ذاك التوقيت بالذات!

وأثناء تلك الساعة توقفنا ثلاث مرات، قيل إن ذلك بسبب حرس الحدود أو ما شابه، راودنا إحساس جماعي بأن تلك التوقفات ما كانت إلاّ لرفع قيمة عمل الصالح وجماعته، وتحويله من عمل عاديّ بسيط إلى آخر بطولي، ولم نكن نحن المقصودين في تلك التمثيليّة السخيفة، بل تلك الأفواج التي ستسمع قصص الناجين منّا وتقرر تكرار خط مسيرنا عبر الصالح وجماعته.

كم تساءلنا في تلك الساعة الشاقّة عن حقيقة وجود أشخاص ما في هذا الكون يفرّغون أنفسهم للاهتمام بوجود فئة من البشر غير المرغوب بهم أمثالنا في تلك البقعة المعزولة من العالم فيترصّدون لهم!

وفور وصولنا إلى مكان محدد تَجَمّعنا بعضنا حول بعض بشكل متقارب وانتظرنا قدوم بعض العربات التي ستقلّنا بدورها إلى مدينة غدامس، وغدامس هذه مدينة في شمال ليبيا تبعد قرابة خمسمئة كيلومتر أو ما شابه عن البحر، لم تتأخر العربات في القدوم، وفي غضون دقائق تم حشرنا فيها بشكل قاسٍ، ثم انطلقت بنا بسرعة مئتي

كيلومتر في الساعة على أقل تقدير، كانت فترة الربع ساعة الأولى وحدها كافية لإصابة العديد منّا بإصابات ما بين البسيطة والمؤلمة والمؤلمة للغاية.

وبشكل غير متوقع ومن دون أية مقدمات توقفت العربات، وتبيّن لنا أنها توقفت في مزرعة صغيرة يتوسطها بناء حجري بسيط، وبشكل طبيعي انتظرنا أوامر السائقين بالنزول من العربات حتى حصّلناها فنزلنا، كلٌّ يتفقد ما حلّ بجسده من آثار الارتطامات، وفي المقابل وبشكل تلقائي غادرت العربات المكان.

وقبيل مغادرة العربات بلحظات ظهر في استقبالنا شاب عرّف بنفسه بأنه يدعى المُعتزّ، كان المُعتزّ هذا صاحب هيبة كبيرة رغم قِصَره ونُحول جسده، رحّب بنا بأدب غير متوقع ثم طلب منّا الإصطفاف كما الأطفال في طابور ومن ثم الجلوس على الأرض، كما طلب منّا عدم سؤاله عن أي شيء مهما كان الظرف، كما نوّه تفضيله لعدم تطرقنا لأيّة أحاديث فيما بيننا، وبعد ذلك سمح لنا بالدخول إلى البناء الموجود في المزرعة، وهناك وجدنا قرابة خمسين مهاجرًا ممن سبقونا في طريق الهجرة، وبعدها بقليل قام بعض عمّاله، وكانوا جميعهم أفارقة من ذوي البشرة السوداء، بتوزيع البطانيّات علينا نحن جموع الوافدين الجدد.

وأثناء وجودنا هناك اكتشفنا وجود بئر ماء وبركة مياه كبريتية صغيرة تتسع لقرابة عشرة أشخاص، كما لاحظنا وجود بناء آخر صغير تبيّن لاحقًا لنا أن فيه نساءً وأطفالاً. كانت أيامًا صعبة، لم يشغل بالنا أثناءها سوى تساؤلاتنا في ما بيننا عن موعد سفرنا، انتظرنا السفر اليوم تلو اليوم. لدرجة أن ذات يوم خطب فينا المُعتزّ

خطبة قصيرة مفادها التحذير من التساؤلات التي لا تسمن ولا تغني من انتظار.

وفي أحد الأيام وأظنه اليوم الثالث من مكوثنا في تلك المزرعة تعرفت إلى رجل حَلَبيّ، كان يسكن الجزائر منذ فترة لا بأس بها وقرر الانضمام إلى درب المهاجرين عندما وجد فيه خيرًا أعظم من مكوثه في الجزائر حيث هو، وكان يمتاز عن غيره من المهاجرين بامتلاكه لشريحة هاتف ليبية مكّنته من عرض المكالمات الهاتفية علينا مقابل الدولارات. في الواقع كنّا جميعنا بحاجة لإجراء المكالمات ولكن البعض تحفّظ على فكرة استخدام الهاتف دون إذن المُعتزّ ورجاله، وفي المقابل تجرأ على القيام بها الكثيرون، أما أنا فمن حسن حظي أنني لم أجرؤ على ذلك البتّة.

وذات يوم قدم المُعتزّ بعربته مسرعًا سرعة صاروخ، ووقف أمام باب البناء غاضبًا يتساءل بأعلى صوته عن صاحب الهاتف الذي نتكلم من خلاله. كان الحلبيّ شجاعًا أكثر من اللازم واعترف على الفور مما لم يشفِ غليل المُعتزّ. نعم لم يكتفِ المُعتزّ بصيده السهل فتساءل عن المتحدثين من خلال هاتفه، لم يجبه أحد بالطبع، فالاعتراف في ذاك الموقف يعني الألم، و"الشديد منه" في حال لم يؤدِ إلى الموت.

أعاد المُعتزّ تساؤله الثاني مرةً ثانية فاعترف له اثنان من المهاجرين، أظنهما قررا التضحية في سبيل حماية المجموعة. ابتسم المُعتزّ ابتسامة خبيثة تشي برضاه بفريسته ثم أشار إلى إحدى العربات وطلب من الأشخاص الثلاثة الصعود على متنها، كانت السعادة تغمر وجهه بالفعل.

صعد الثلاثة في مقعد العربة الخلفي وبقدمه أغلق المُعتزّ الباب من خلفهم، ثم نظر صوبنا نظرة تفوح منها رائحتي الاشمئزاز والتحـــدّي وأخذ يهددنا بإبلاغ رجال الأمن عن مكاننا، ثم شتمنا بـــأقبح مـــا توصل إليه قعر الشتائم من مستوى، وركب في مقعد العربة الأمامي وانطلق بذات السرعة التي قَدِم فيها.

وبعد مضي ساعة من الزمن أو ما شابه، عـــادت ذات العربـــة وأفرغت محتوياتها البشرية وسط الجميع، وكانت محتوياتها عبارة عـــن ثلاثة أجساد محطمة بشكل مُفزع، كانت هيئاتهم مرعبةً بحق، صدمتنا قسوة قلوب الرجال الذين سلمناهم أجسادنا وأرواحنا، شعرنا بـــدنوّ نهاياتنا وبدأنا نشعر بالندم الحقيقي على ما فعلناه بأنفسنا بوجودنا بين أيديهم، كان موقفًا عصيبًا حرمنا طعم النوم حتى صباح اليوم التالي، اليوم الذي بدأ مغايرًا بقدوم شاحنة نقل مواد بناء.

كان منظر الشاحنة مخيفًا للغاية، فشاحنة كتلك بالتأكيد ليست مخصصة لنقل البشر، ولكنها قد تستخدم في نقل الأتربة، الحصى، وفي أسوأ الاحتمالات الجثث، نعم الجثث ولِمَ لا؟ وأثناء ترقّبنا لمصـــيرنا أطلق المُعتزّ من مسدسه بعض الأعيرة الناريّة مبديًا فرحةً عارمة، وبدأ يذكر أسماءنا الواحد تلو الآخر مطالبًا كل مَن يذكر اسمه بالصـــعود على ظهر الشاحنة دون أمتعته بحجة أنها ستلحق بنا لاحقًا. ورغـــم انصياعنا لأوامره كنّا على يقين بكون أمتعتنا لن تغادر تلك المزرعـــة أبدًا. للمعلومة سلّم كل منّا على مضض كون الشاحنة لنقلنا ونحـــن أحياء لا أموات!

في البداية ظننا أن الشاحنة ستتسع لمجـــرد عشـــرة أو عشـــرين شخصًا وأصابنا الاستياء لذلك العدد القليل، ولكننا تفاجأنـــا بأنهـــا

استوعبت قرابة الخمسين شخصًا، إذ كان هناك المُعتزّ واثنان من رجاله على ظهر الشاحنة يحشرون كل من يصعد إليهم ويكدسونهم بعضهم بجانب بعض، أسوأ ما في الأمر – بالأحرى هذا ما ظننته – أن أسعد صعد للعربة و لم أصعد.

تحضرت الشاحنة للتحرك وسط خيبتي وخيبة كل المتبقين خارجها، ولكن المُعتزّ أبى انتهاء ذاك المشهد بتلك الطريقة السلسة، فأمر بحشر الركّاب أكثر فأكثر ثم أمر بإضافة خمسة مهاجرين آخرين، ومن حسن حظي – بالأحرى هذا ما ظننته مرة أخرى – أن اسمي كان أول الأسماء الخمسة الجديدة، وكم أسرّني ذلك لكوني سأسافر من جهة، ولكوني لحقت بأسعد من جهة أخرى.

وعلى الفور صعدت على متن الشاحنة وكانت جدّ مرتفعة. ثم أشار إليّ المُعتزّ أن أجلس في إحدى الزاويتين شبه الفارغتين، كان على مقربة نصف متر مني، جلست تمامًا كما طلب، وكان المكان شديد الضيق فاتخذت وضعية سمك السردين في علبة حديدية وأخذت على نفسي عهدًا بعدم تناولها في المستقبل، وانتظرت حتى ركب الأربعة الباقون، ورغم ضيق المكان الشديد الذي تم حشري فيه كنت ما أزال سعيدًا لكوني على ظهر تلك الشاحنة، وحافظت على سعادتي إلى أن فاجأنا المُعتزّ بأمر إضافة خمسة أسماء آخرين، ولحظتها أخطأت خطأً كاد ألاّ يُغتفر ونطقت!

كان كل ما نطقت به هو كوني مصابًا في ظهري وأنني لا أستطيع الانضغاط أكثر مما انضغطته، اقترب مني المُعتزّ وطالبني بالوقوف أمامه، وبالطبع وقفت كما أمر وبتنا معًا وجهًا لوجه، طرف مُستضعف إلى أبعد حد ضد آخر مُتجبّر إلى أبعد حد، (ماذا؟) تساءل

بصوت خافت، ثم صفعني على خدي الأيسر بكل ما أوتي من قـــوةٍ أسقطتني "رغم ضخامتي بالنسبة له" على أجساد المهاجرين المتكدسين على يميني، ولولا أجسادهم لارتطمت بأرضية الشاحنة أيّما ارتطام!

في غضون ثانية أو ما شابه شعرت بارتفاعٍ فظيعٍ بدرجة حرارة جسمي وبدوار ثقيل في رأسي، وبالرغم مما كنت فيه وأنـــا فـــوق أجساد المهاجرين حمدت الله أنه لم يصفعني على خدي الأيمن الذي سيعني من كل بد سقوطي على وجهي أرضًا مـــن علـــى ظهـــر الشاحنة.

وكعادته لم يكتفِ المُعتزّ بتلك الصفعة فأعقبها بإطلاق صَليّة في وجهي أعيرها من أقذر الشتائم المدونة في قاموسه القذر، وبالرغم من ذلك لم يكتفِ وأردف قائلاً: (انزل!) وبالرغم مما أنا فيه تساءلت عن معنى ما قاله: (انزل)، أوقف فعل الأمر الصغير المكوّن مـــن أربعـــة أحرف الذي نطق به المُعتزّ الدوار الذي أصابني، وتذكرت على الفور ذاك المدخن في الحافلة الذي أُمر بالنزول منها وما أصابه من الـــذل، كما تذكرت شفقتي تجاهه وشفقة الجميع، لـــذا ومـــن دون إدراك سالت من فمي كل مفردات الغفران التي سمعت عنـــها في حيـــاتي، سالت مني دون أدنى هدى، كنت كمن أصابه المسّ، شعرت بملمس حبل المشنقة حول رقبتي وحالي حال البريء الأبكم.

رفض المُعتزّ رجائي بفجاجة مُهينة وأصر على طردي من شاحنته للدرجة التي أقنعتني بانعدام فرصتي بالسفر، وخصوصًا في ذاك اليوم. أصعب ما كان في الأمر أن الموقف لم ينتهِ عند ذاك المشهد! فعنـــدما هممت بالنزول من الشاحنة تبيّن لي مدى ارتفاعها الحقيقيّ، كانـــت جدّ مرتفعة مما زاد ما في موقفي من سوء، وهنا لا أقصـــد بالســـوء

فقدان شبه المقعد الذي حصلت عليه بل سوء موقفي أثناء محاولة نزولي من الشاحنة وآثار الصفعة ما تزال جليّةً على وجهي.

وأثناء تفكيري بالآلية المناسبة التي عليّ النزول من خلالها بادر المُعتزّ لا مشكورًا وهو في مكانه وبكل بساطةٍ وبكامل إنسانيّته وقام بدفعي بقدمه، وكانت نتيجة دفعته الهمجيّة أن سقطت على وجهي أرضًا بكل سهولة ويسر! في الواقع لا أذكر ما أصابني لحظتها من الألم، ولا حتى من الحرج. وفي المقابل أذكر جيدًا أن غصّة أصابتني، نعم أصابتني غصّة كغصّة موت ربما، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، شعرت أنني كقطة من التي تحبها مريم، قطة بسبعة أرواح استنفدت للتو الروح الثالثة من أرواحها السبعة.

مريم! تذكرت، نهضت على الفور، لم أكن أنا، أظنها غريزة البقاء من نهضت بي لأكتشف أن المدعوّ المُعتزّ يتأهب للقفز قاصدًا اللحاق بي، وبشكل غريزي ركضت، ركضت دون وعي وركض المُعتزّ خلفي دون رحمة، وكم حمدت الله أنه يمنح الخائف أقدامًا أكثر كفاءة من غيره فسبقته بمراحل، ومع يأسه من اللحاق بي توقف وصرخ قائلاً: (الله غالب، لن تذهب إلى إيطاليا) أذكرها! لعنه الله.

تمخض صراخه عن عيار صوتي خارق اخترقت قلبي وأرداني في قعر اليأس. ولكنني وبالرغم من حالتي الجسدية والنفسية تابعت الركض رغمًا عن عدم وجود هدف أبتغيه أو وجهة أتوجه إليها! وأثناء ذلك غادرت الشاحنة وغادر المُعتزّ معها، لذا لم أجد أفضل من العودة إلى المكان الذي اعتدت النوم فيه لأدفن نفسي تحت بطانيتي لعدة ساعات دونما أي حراك لأفكر في المُعتزّ والطريقة التي سينتقم بها

مني، وفي مخيلتي هيئة الرجل الحلبي المحطم والاثنين اللذين رافقاه. لاحقًا تبين لي أن المتبقين معي في المزرعة قرابة الثلاثين شخصًا.

عشت من بعد تلك الواقعة عدّة ساعات قاسية كان عنوانها مجرّد الانتظار، انتظار المدعو مُعتزّ وما سيُسفر عن لقائه، ترقبّته كثيرًا، وفور نسياني لأمره عاد، عاد المُعتزّ وتجمع المهاجرون من حوله بشكل سريع، أما أنا فاقتربت منه قليلاً ولكنني كنت ما أزال بعيدًا عنه وبالرغم من ذلك رآني، أشار لي بازدراء وقال: (لا أريد رؤية وجهك مرة أخرى) وأعقب ذلك ببضع شتائم لا داعي لذكرها الآن. وبالرغم من قذارة ما قاله المُعتزّ أسعدني كلامه، وكيف لي ألاّ أُسعد وفي ما قاله ما معناه أنه سامحني من القتل، سامحني من القتل بكل معانيه؛ الموت والضرب. ومن شدة فرحي عُدت بشكل عفوي إلى بطانيتي مجددًا ودفنت نفسي تحتها وبقيت على حالي إلى أن رحل مرة أخرى، وكم فرحت برحيله!

وكان للمُعتزّ أخ أكثر لطفًا منه بمراحل، وجدت فيه من الطيبة ما فيه الكفاية لأتشجع وأحتك به، شعرت أنه طوق نجاتي الوحيد، لذا حاولت من بعد واقعة الشاحنة الاحتكاك به أكثر، ومع الوقت أخذت أرجوه كي يسمح لي بالسفر عن طريقه فرفض، ومع إلحاحي على مدار الأيام وافق بشريطة عدم وجود أخيه لحظة قدوم الشاحنة القادمة.

بعد قرابة أسبوع أو ثمانية أيام على حادثة الشاحنة حل عيد الفطر، ومن باب الاحتفال بالعيد أحضر أخو المُعتزّ بعض الخبز والمعلبات والسجائر والحلويات لجميع الموجودين، وفي نفس اليوم وفدت إلينا مجموعة جديدة من المهاجرين، وعلى قدر إلحاحهم في

السؤال عمّا سيجري لهم حافظت على صمتي، كان صمتي يفوق صمت من به خرس.

في اليوم الثاني من عيد الفطر قدمت شاحنة وعربة كبيرة قرابة العصر ولحسن حظي لم يكن المُعتزّ متوفرًا في المنطقة في ذاك الوقت، نعم، يحدث أحيانًا أن تأتي معجزة على هيئة صدفة بحتة، وها هي المعجزة قد أتت وكان من نصيبي أن صعدت مع مجموعة من الأشخاص على ظهر الشاحنة، وتبيّن لنا أن العربة الكبيرة كانت مخصصة للنساء والأطفال، الجميل في الأمر أن المكان كان أكثر اتساعًا من المرة السابقة ولكن الأجمل كوني صعدت على متنها وانتهى الأمر وانطلقنا، وبذلك انتهت قصتي مع المُعتزّ للأبد وتفرغت لأتأمل لقاء رفيقي أسعد مجددًا.

وبعد قطعنا لمسافة مئة كيلو متر أو ما شابه توقفت الشاحنة بذريعة حاجة السائق لمرافق يسافر معه، وتعذّر بكونه لن يستطيع المتابعة من دونه، وبعدها بقليل تبيّن لنا أننا موجودون قبالة منزل السائق، لذا عرض علينا النزول من ظهر الشاحنة والتوجه إلى بيته كما "تكرّم" بالسماح لنا بالمبيت عنده، وأعطانا هاتفًا لمن يرغب بإجراء أيّة مكالمة منه مقابل عشرة دولارات!

## الجزء الثاني..

- أخي أتشتري البسكويت؟ (بائع البسكويت، بأمل).
- يا ريت! (طفل، بحسرة رجل!).

## الفصل الرابع

# زُوارَة

وصل مرافق السائق قرابة منتصف الليل أي بعد بضع ساعات فقط على وصولنا إلى منزل السائق، وفور وصوله أمرنا صاحب البيت بالخروج من بيته بسرعة والتخلص من كل ما تبقى معنا من الأمتعة بالرغم من عدم امتلاكنا إلاّ للقليل القليل منها، ثم كدّسنا على متن ظهر شاحنته وانطلق بنا، انطلقنا قرابة الساعة الواحدة ليلاً وسارت أمامنا العربة التي حمّلت على متنها النساء والأطفال. في الواقع لم يكن خفيًّا على أحد منّا أن كل ما فعله سائق الشاحنة كان خطة سخيفة بقصد جمع دولاراتنا مقابل استخدامنا لهاتفه.

كانت الطريق هذه المرة غير مُعبدة، بمعنى آخر في قمة السوء، وكانت الشاحنة تسير بسرعة جنونية تكاد تطير دون أن تمسّ عجلاتها مدرجًا. كان كل متر طولي نقطعه يعني ارتفاعنا لما يفوق المتر عموديًا ومن ثم ارتطامنا بأرضية ظهر الشاحنة، وكانت أصوات صرخاتنا وآهاتنا تملأ الطريق، كانت رحلتنا تلك رحلة قاسية للغاية، كنّا كحبوب ذرةٍ بائسةٍ منثورة في قعر قدرٍ مُتَضرّمٍ على النار، وها أنا أعاني حتى اللحظة من انزلاقٍ غضروفي جرّاء تلك الرحلة المشؤومة.

وبشكل مفاجئ توقفت الشاحنة وسمعنا السائق يصرخ فزعًا، فهمنا منه أنه يشتم بعض رجال أمنٍ أمسكوا به، وبمعنى آخر أمسكوا

بنا، كانت لحظات مليئة بالحرج واليأس، وكان مما زاد الطين بلّه سماعنا لأصوات البعض وهم يطرقون بأيديهم وأرجلهم على جنب الشاحنة طرقاتٍ مشحونة بالغضب مما جعلنا نستشعر انتهاء رحلتنا وأن القادم غير المتوقع أعظم خطرًا، وما أجمل أن أعقب تلك اللحظات صوت ضحك السائق ومرافقه وتخلل ذلك إعلامهما لنا بأنها كانت مجرد مزحة لا أكثر وأننا الآن في استراحة قصيرة. نعم كانت مزحة! وما كان باليد حيلة سوى أن تنهد الجميع الصعداء وشكرنا الله على النجاة من تلك المزحة شبه القاتلة!

وقُبَيل نزولنا من على ظهر شاحنته قام السائق بتحذيرنا من التواجد الكثيف للعقارب في المكان ثم فتح لنا جنب الشاحنة، وبدل أن يسرّنا ذلك أبكانا، إذ لم نستطع الحركة، كانت أجسادنا محطمة كآمالنا، وكانت شديدة التلاصق كالعقبات التي واجهتنا وما زالت تواجهنا، احتاج كلٌ منا ما احتاج من الوقت كي يتمكن من الحركة ومن ثم النزول للأرض المليئة بالعقارب، ومع مرور الوقت تمكن معظمنا من النزول وكان ذلك مفرحًا إلى حد ما، ولكن الفرح ذاك لم يدم طويلاً إذ كانت مشقة العودة إلى ظهر الشاحنة أكثر صعوبة وإيلامًا.

ولكننا في نهاية الأمر صعدنا، وتابعت الشاحنة بنا طريقها ونحن على حالنا السابق لمدة ساعة أو ما شابه إلى أن التفّت الشاحنة ودخلنا حسب ما بدا لنا طريقًا معبدًا، وحينها أبطأت الشاحنة من سرعتها، والعلم عند الله أن كل ذلك كان تمثيلاً ليس إلاّ.

ومع دخولنا للطريق المعبد تمكننا من رؤية البحر، كنّا نختلس النظر للبحر خلسةً، وبعد ظهوره أمامنا بقليل ظهرت لنا مدينة عرفنا

لاحقًا أنها تدعى مدينة زوارة، وزوارة هذه مدينة ليبية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط اكتسبت شهرة عالميّة بتصديرها للمهاجرين غير الشرعيين نحو كافة أرجاء أوروبا وخصوصًا إيطاليا.

كان الوضع هادئًا جدًا على متن الشاحنة على غير المعتاد، أقلقنا ذلك، وبالفعل كنّا محقين لقلقنا إذ توقفت الشاحنة فجأة ونزل منها السائق وعاود وفتح جنب الشاحنة بفجاجة وتبيّن لنا أنه يشهر السلاح في وجوهنا هذه المرة، وأمرنا غاضبًا بالنزول بأقصى سرعة، لوهلة شعرت بكون لحظة إعدامنا قد حانت!

كان في انتظارنا عشر عربات مدنيّة، وبشكل عجول طلب كل سائق من سائقي العربات ما بين خمسة وتسعة أشخاص منّا، وكان حظي مع ثمانية آخرين، اصطحبنا السائق الجديد قرب عربته وكانت ذات صندوق خلفي كبير، وأمرنا جميعًا بالصمت التام، ثم أمرني شخصيًّا بالجلوس في الأمام بجانبه، فرحت بذلك إذ جَنبني بذلك التكدّس في الخلف – لاحقًا ندمت على فرحي وافتقدت التكدّس – ثم أمر ثلاثة آخرين بالجلوس في المقعد الخلفي على أن يجلس البقية في صندوق العربة.

توزع الجميع على العربات، وتكدسّ كلّ منا في مكانه، الغريب أننا لم نتحرك، طلب سائقو العربات من المتواجدين في المقاعد الخلفية تغطية رؤوسهم باستخدام بعض الأغطية الكرتونية، رضخ البعض بدون تردد بينما تردد الباقون باستثناء أحدهم الذي تجرأ ورفض الأمر!

أحببت شجاعة ذاك الرجل ولكنني استهجنت توقيتها، فقد مررنا بأقذر من ذلك و لم يمانع! (لربما طفح الكيل عنده) قلت في

نفسي، وكان أسوأ ما حدث بعد ذلك أن السائق لم يفاوضه أو حتى كرر له الأمر بتغطية رأسه، وعوضًا عن ذلك صرخ طالبًا تجمع باقي السائقين، وعلى الفور قاموا بانتزاع المعترض من داخل العربة انتزاع رجلٍ واحد وقاموا بضربه بقسوة مرعبة. تكالبوا عليه تكالب ضباعٍ جائعة على جيفة ممتلئة، حطّموه، حطّموا كل ما فيه، حطّموه كَكُلٍّ وكأجزاء، ونحن معشر الركّاب قرأنا بدورنا الفاتحة على روحه يقينًا بموته، ولكنه فاجأنا بصموده على قيد الحياة واكتفائه بالإصابة بالعديد من الرضوض والكسور، وفور انتهائهم من تحطيمه أدخلوا رأسه النازف من عدة مواضع في إحدى العبوات الكرتونية وأعادوه للمكان الذي انتزعوه منه. وكم آمنت بكونه محظوظًا عندما أعادوه للعربة عوضًا عن إلقائه خارجها.

لم تكن محصلة تلك الحادثة سوى سطوة الرعب على مشاعر الجميع، من شدة الرعب كنت على استعداد للتوقف عن التنفس للأبد في حال طلبوا مني ذلك، والحمد لله أنهم لم يطلبوا ولو مزاحًا، هذا إن كانوا يعرفون للمزاح من سبيل!

كنت وجميع الركّاب على معرفة مسبقة بأن أخطر مراحل طريق هجرتنا هي المنطقة ما بين مدينة زوارة والبحر، وأن المهربين يسرقون أثناءها من المهاجرين كل ما هو قابل للسرقة، سواء المال أو الحليّ أو أي شيء قد يُباع، كنت على يقين بأنني سأفقد كل ما تبقى معي من المال ولكنني كمحاولة أخيرة وضعت كل ما أملكه في علبة السجائر ووضعتها في جيب قميصي الأمامي، أي أمام العيان من أجل إبعاد الشبهة عن تفتيشه. وفي سبيل الحرص عمل جميع المهاجرين على إخفاء آخر ممتلكاتهم قدر الإمكان آملين بنجاتها. لا أنكر أنني كنت

قلقًا بما فيه الكفاية من فعلتي ولكن مع انتهاء السائق وعودته من تأديب ذاك المعترض قلقت أكثر وأكثر.

ركب سائق العربة وهو يشتم المهاجرين والشعوب التي أنجبتهم، ثم نظر للمقعد الخلفي بازدراء وطلب من الجميع إغلاق النوافذ بأيّة أقمشة متوفرة معهم، أخذت أتلفت من حولي كي أجد ما أغلق به النافذة ولكنه استدرك أمره واستثناني من هذه المهمة ثم انطلقنا. كان غضبه الشديد يُضاعف من مقدار قلقي.

وبعد انطلاقنا بربع ساعة أو ما شابه نظر السائق إلى صدري نظرة جانبية خاطفة وابتسم، تابع مراقبته للطريق ثم عاود ونظر إلى صدري وطلب مجرد سيجارة، (سيجارة.. علبة السجائر.. كل ما تبقى معي من مال أخفيه.. وعقوبة إخفاء المال!) تناثرت هذه الكلمات في داخلي وشعرت بقلبي يهوي، واشتم أنفي رائحة الموت الكريهة، أجزم أن وجهي اصطبغ بحمرة قانية لحظتها، كما شعرت بالنبض في موطن الصفعة التي حظيت بها من المُعتزّ، وتحسّرت أشد الحسرة على عدم تكدّسي في الخلف مع جموع المتكدّسين.

وبدون أدنى إدراك مني أخرجت علبة السجائر من جيبي وهممت بفتحها بطريقة ما لعلها لا تكشف أمر ما أخفيه فيها، وأثناء ذلك وبشكل مفاجئ أمسك السائق برسغي الأيسر مما ضاعف مخاوفي لدرجات قياسيّة، شعرت بأنني على بعد خطوة من الموت أو ما شابه، أصابتني غصّة، كغصّة موت ربما، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، شعرت أنني كقطة من التي تحبها مريم، قطة بسبعة أرواح استنفدت للتوّ الروح الرابعة من أرواحها السبعة.

قطع السائق عليّ مخاوفي وهو يمسك برسغي الأيسر قائلاً: (إمّا مالبورو وإما فلا). ابتسمت، ابتسمت كقناع، لا بل كجثة، نعم ابتسمت كراقدٍ في قاع قبر، وأخذت أعُبّ من هواء الحياة ما استطعت. (للأسف) قلت له بصوت دجاجة مُستضعفة على لوح تقطيع، وأخذت أتأمل الفرج وهو يبزغ من الخلف. من هناك من بين جموع المتكدسين، بزع فجري الجديد كبزوغ شمس متضرمة عقبَ ليلةٍ جليديةٍ لاسعة، (تفضل.. المالبورو). كان هذا القول أبدع ما أصغيت إليه في حياتي من قبل، لوهلة ظننتها أبدعَ من أول كلمة "بابا" سمعتها من ابنتي الكبرى، أخت مريم التي على عكس أختها لا تحب القطط. نعم لقد تبرع أحد المتكدسين في الخلف وأعطى السائق المالبورو الذي يريده. أنقذني ذوق ذاك المهرب مما ظننت فيه نهايتي.

وتابعت العربة مسيرها لمدة ربع ساعة أو ما شابه، وأنا ومن معي بانتظار اللحظة التي يجبرنا فيها السائق على إعطائه كل ما نملكه، كانت القضية قضية وقت لا أكثر. وأثناء انتظارنا بادر السائق الكلام والضحك يغالبه: (كنّا نسرقكم في هذه المرحلة من الرحلة، ولكننا مُنعنا من ذلك للمحافظة على سمعتنا كأفضل جهة لتهريب المهاجرين، ولكن بالرغم من ذلك عليكم دفع أجرة هذه العربة، لا تقلقوا مجرد مئة دولار لا أكثر.. مئة دولار عن كل منكم!) ثم طلب مني جمع المبلغ.

وبدوري استدرت للخلف لأجمع الثمانمئة دولار، ثم طلبت من أحد الركّاب مئة دولار إضافيّة كسُلفَة مؤقتة وغمزته بعيني، فهم الرجل مقصدي وأعطاني المئة دولار، وعلى الرغم من ذلك أصدر

السائق أوامره لذاك الرجل بإعطائي المبلغ، لا لشيء سوى محبة بإصدار الأوامر.

ومع انقضاء بضع دقائق أخرى على انتهاء ذاك المشهد وصلنا إلى منطقة فيها العديد من الشاليهات، اصطفت العربة التي كانت تقلّنا قبالة إحداها واصطفت حولها باقي العربات تباعًا، كانت تلك الشاليهات ما تزال تحت قيد الإنشاء، كلٌّ منها محاط بسور مرتفع.

تباحث سائقو العربات معًا ثم توجّه كل منهم بعربته إلى أحد الشاليهات، أجمل ما في الأمر كان رائحة البحر، شعرت أن ما بيني وبين خط نهاية رحلتي مجرد خطوة واحدة، خطوة البحر!

فتح أحدهم لنا باب الشاليه من الداخل وأمرنا بالدخول فأطعنا، وفوجئنا بوجود مئتي شخص أو ما شابه في الداخل يرتدون سُتر نجاةٍ التي تبيّن لنا لاحقًا أنها أشباه سُتر نجاة، وتوزعنا داخل الشاليه وتبين لنا أنه مكون من مجرد غرفتين ودورة مياه واحدة وساحة واسعة مسقوفة. وبعد مرور أقل من نصف ساعة لحقت بنا عربة ثانية وانضمت حمولتها إلينا في ذات الشاليه. وبعدها بقليل قام المهربون بتوزيع البطانيات على جموع الوافدين الجدد.

كم ذكرني ذاك الشاليه ببيت النحل! مكان يعمّه التجمهر والجَلَبَة كما يعمّ بيت النحل الاحتشاد والأزيز، شعرت أول الأمر بكوني كنحلة، ومع مرور القليل من الوقت شعرت بأنني أقل، بل أقل بكثير، إذ لا أحظى ومن معي بقيمة كما للنحلة من قيمة بين النحل، لم يعجبني التشبيه الذي توصل له حسّيَ الأدبي البسيط، ولطرده من مخيلتي استوقفت أحد المارة وسألته عمّا يجري، فأجابني على عجالة بأننا على ما يبدو سنصعد للسفينة الليلة.

وفور سماعي لكلمة "الليلة" وضعت كل ما تبقى معي من المال مع أوراقي الثبوتية مع هاتفي النقال في أحد المغلفات البلاستيكيّة المتوفرة في كل مكان وأحكمت أغلاقه باللاصق خشية تسلل الماء إلى داخله، ثم وضعتها في إحدى جيوبي وأغلقت عليها، ثم ربتت على الجيب بقوة وتنهدت استعدادًا، وفور انتهائي من ذلك ظهر أمامي أحمد، أحمد هذا مُدرب مادة التربية الرياضية الذي تعرفت عليه ونحن نرزح تحت سطوة سيئ الذكر المدعو مُعتزّ.

كان يرافق أحمد هذا اثنان من أبنائه أعمارهما تقارب العشرين عامًا أو ما شابه، كان أحمد عَلمًا بين المهاجرين في مدينة غدامس كما المشاهير، وذلك بسبب تعليمه لكل من رغب منّا أساسيات السباحة، وكانت حصص تعليم السباحة تتم في بركة المياه المعدنية التي وجدناها قرب سكننا في غدامس، كان كثيرًا ما ينصحنا بعدم مقاومة الماء في حال غرق السفينة (السباحة في البحر لا تجدي نفعًا) حسب قوله.

كان أحمد يتسطح على ظهره مفترشًا الأرض، عرفته عن بعد من جسمه الرشيق، كنت متيقنًا بكونه أحمد لذا اقتربت منه ولكن الألوان التي بدت ظاهرة على وجهه بدّدت من يقيني مما جعلني أتساءل إن كان حقًا هو أم لا! كان في وجهه من الألوان ما بين الأسود والأخضر والأصفر والأحمر، كان وجهه أشبه ما يكون بلوحة فنية قبيحة، أو بالأحرى كقوس مطرٍ مشوهٍ كنتاجِ شتاء عذابٍ جائر.

تجرأت أكثر واقتربت منه أكثر وأكثر، ثم ألقيت التحيّة عليه، نعم على صاحب الوجه المشوّه ذاك، وما كان منه إلاّ أن أشار بيده طالبًا مني الابتعاد عنه. صدقًا استهجنت تصرفه ولكن الأمر

الإيجابـــي من ذاك الموقف هو تأكدي من كونه حقًا المدرب أحمد. لاحقًا تمكنت من الحديث مطولاً معه، وسألته عمّا جرى لوجهـــه، فابتسم مضيفًا: (بل لوجهك وجسدك) وكشف لي عن جسده وتبين لي أن اللوحة الفنية القبيحة لم تقتصر على وجهه وحسب بل طالت كامل جسده أيضًا، ومن الأمام والخلف، وقصّ عليّ ما حدث معه.

حدّثني المدرب أحمد أن أحد المهربين أمره بالإقامة في إحـــدى الخيم بدلاً من الإقامة في الشاليه بسبب ازدحامه، ولرفضه ذاك الأمر، تكالب عليه مجموعة من المهربين وضربوه بكل ما في أحذيتهم مـــن قسوة، مع تحذيرهم الشديد اللهجة له من مغبة محاولته الدفاع عـــن نفسه، أخافهم جسده الوحيد الأعزل رغم كثرتهم وكثرة عتـــادهم، وعندما حاول أبناه مساعدته في صد العدوان عنه هددوهما بالقتـــل، ولولاه لَقُتِلا إذ أمرهما بالانصراف ومتابعة المشهد بعيدًا عنه، وفي آخر الحديث ابتسم وقال: (مما يعزيني قليلاً أنهم وبعد مرور أربعة أيام مـــن تلك الحادثة طلبوا مني المغفرة على ما فعلوه بحقي). كان يومها بالكاد يستطيع التبسّم!

كان يومنا الأول حافلاً بالأحداث، فبينمـــا كنـــت علـــى أتم الاستعداد للسفر في تلك الليلة حدثت جَلبة كبيرة بشكل مفـــاجئ، توجهت مباشرة إلى مصدر الجَلبة وسألت أحدهم عمّا يجري، وتبين لي أن المهربين قد ملأوا إحدى السفن بعدد يفوق ما تستطيع السفينة حمله، وكي ينقذوها من الغرق قرابة الساحل أجبروا مـــا يقـــارب الخمسين مهاجرًا على القفز في الماء دون أدنى اهتمام بكونهم يعرفون السباحة أم لا، كان كثيرٌ من هؤلاء المجبرين على النزول من الســـفينة على وشك الغرق، ومن يدري فلا أحد يعرف إن غرق أحـــد مـــا

يومها أم لا، فالبشر في ذاك المكان أقل قيمة حتى من الحيوان. أذكر أنني بحثت كثيرًا عن رفيق سفري أسعد ولكن من دون جدوى.

وفي صباح اليوم التالي تبين لنا أن على كل من يريد الطعام طلبه من أيٍّ من السائقين، فطلبت مع اثنين من الموجودين حولي ثلاث وجبات دجاج وعلبة سجائر وأعطيت السائق ورقة من فئة المئة دولار، لاحقًا اكتشفنا أن مفهوم إرجاع النقود المتبقية من عملية الشراء غير موجود في قاموس أولئك السائقين. أظنها أثمن وجبة تناولتها في حياتي حتى الآن، ولا أظنني سأتناول أثمن منها!

وفي اليوم الثاني قدم صوبنا أحد المهربين وأعلمنا بضرورة استعدادنا للسفر، ومن المحيطين بي اكتشفت أن المقصود بالاستعداد هنا عدم تناول الطعام تجنبًا لمتاعب المعدة الممتلئة أثناء السفر. وللأسف لم نسافر يومها وتكررت ذات القصة في اليوم التالي لذاك اليوم، ولم نسافر، ومرت الأيام وباتت الوعود بالسفر تقليدًا يوميًا.

وفي مساء أحد الأيام الذي امتاز بعدم إعلامنا بضرورة الاستعداد للسفر، توقّع البعض مُزاحًا أن يكون في ذلك إشارة لكون السفر في تلك الليلة، الغريب في الأمر أنه كان بالفعل كذلك، ففي المساء قدم إلينا مجموعة من المهربين وأمرونا بشراء سُتَر النجاة بسعر خمسة وثلاثين دولارًا للسترة الواحدة، مع العلم أنهم هم أيضًا لا يدرجون فكرة إعادة الباقي في حساباتهم. لذا اتفقت مع شخصين آخرين واشترينا ثلاثة سُتَر مقابل مئة دولار. وفي قرابة الساعة الثانية عشرة ليلاً فُتح باب الشاليه ودخلت مجموعة جديدة من المهاجرين يرافقهم أحد المهربين وطلب منهم الانتظار في أحد أركان الشاليه.

وبعدها بقليل دخلت مجموعة أخرى وعملت عمل المجموعة

الأولى، وكم ذُهلت حين وجدت أسعد بينهم، أسعد الذي فقدت كل آمالي برؤيته مجددًا، وبشكل عفوي ناديت (أسعد) فرحًا ولكنه أجابني (أهلاً) ببرود ميت، كان من الجليّ وجود تعليمات شديدة بعدم الحركة ولربما بعدم الكلام أيضًا.

وبعدها بلحظات قليلة دخلت مجموعة جديدة من المهاجرين من النساء والأطفال، وبسبب زيادة الاكتظاظ في الشاليه المكتظ أصلاً تمكنت من التسلل واقتربت من أسعد. في البداية أبدى أسعد تخوفه من عاقبة مخالفة أوامر المهربين ولكنه مع مرور بضع دقائق ولمخالفة العديد من المهاجرين الأوامر تجرأ وطلب مني سيجارة، منحته واحدة على الفور، ولكن ليست مالبورو! وأخذ يدخن بنهم وقصّ عليّ ما حدث معه من بعد افتراقنا في مدينة غدامس.

روى أسعد لي كيف أنه تم احتجازه مع تسعة عشر مهاجرًا آخر في حجرة صغيرة لها نافذة واحدة شديدة الصِغَر، لا ماء فيها ولا كهرباء، وكانت حجرة خاوية على عروشها، حتى البطانيات كانت غير متوفرة فيها، لا شيء فيها سوى الهواء، عانوا فيها الحر الشديد في الصباح والبرد الأشد في الليل، وكان أحد المهربين يدخل لهم الخبز والتمر والماء عبر النافذة ثم يقوم بإغلاقها على الفور، وذلك لمرةٍ واحدةٍ في اليوم! واستمر على ذاك الوضع المزري طوال الفترة التي افترقنا فيها بعضنا عن بعض.

ظننت أن معاناته انتهت بما ذكره لي، ولكن تبيّن لي أنه لم يبدأ بذكر شيء عنها بعد، خصوصًا عندما ذكر نقطة عدم وجود دورة مياه في تلك الغرفة، إذ كانت علب المياه البلاستيكية التي تصلهم من المهربين تعمل عمل دورات المياه، مما سبب تفشي رائحة كريهة لا

وجود لكلماتٍ قادرةٍ على وصفها، رافقتهم طوال وقت احتجازهم في تلك الغرفة، وبذلك تبين له ومن معه أنه حتى الهواء بات حلمًا صعب المنال، كانت قصته أكثر من مجرد مُبكية! ما زلت أشعر بطعم ألمها في سقف ذاكرتي حتى هذه اللحظة.

# البحر

وقرابة الساعة الواحدة من ليل ذاك اليوم دخل الصالح شخصيًّا الشاليه وألقى السلام علينا نحن جموع المتكدّسين بصوت جهوريّ، ثم تمنى لنا سفرًا ممتعًا مما سبب تفشّي الفرح في الشاليه للحظات حتى تابع كلامه وأخبرنا بأن الذين سيذكر أسماءهم وحدهم من سيتمكنون من السفر في تلك الليلة فأصابنا الاستياء، كما طلب من كل اثنين ينطق باسميهما أن يمسك كل منهما يد الآخر والسير ضمن مسار معين نحو البحر. وبالنسبة إليّ كنت قد حضرت نفسي مسبقًا منذ فترة طويلة؛ معي القليل من التمر والماء، وأما علبة سجائري وأوراقي الثبوتية وهاتفي النقال وما تبقى من نقودي فهي في غلاف بلاستيكيّ محكم الإغلاق.

ثم بدأ الصالح بتلاوة أسماء المسافرين، وأثناء ذلك خطر على بالي تأمل اسمه الذي لا ينمّ عن خُلقه قط، إنه الطالح وليس من الصالح بشيء، نعم سأدعوه بالطالح ابتداء من هذه اللحظة. ذكر الطالح اسمي، أفرحني ذلك وتأملت أن يكون اسم أسعد التالي، لم يكن هو، (لا بأس) قلت في نفسي، أمسكت بيد الشخص الذي ذُكر اسمه بعد اسمي وانطلقنا كما أشار لنا الطالح نحو البحر. وعلى بعد قرابة الخمسين مترا من الماء طلب منّا أحد المهربين التوقف.

وكان يفصل بيني وبين البحر ثمانية ثنائيات من المهاجرين، وكم بدا البحر مُفزعًا وقتها بشكل مختلف! كان التوتر سيد ذاك الموقف، زاده بشكل مفاجئ صراخ أحد المهربين صرخةً مفادها انطلاق الأربع ثنائيات الأقرب من البحر إلى مصيرهم وعبور مسافة مئتي متر أو ما شابه في المياه وصولاً إلى زورق كبير في انتظارنا، حيث يمتطي من يستطيع منهم سطح الزورق ومن ثم يعملون على مساعدة البقية.

تساءلت في نفسي إن كان حقًا ذاك هو الزورق الذي سيحملنا إلى أوروبا أم لا! انتابني الخوف من جديد، خوف شديد من نوع جديد، خوف من الغرق، وأنا من لا أتقن السباحة البتّة، ندمت لحظتها على كل الفرص التي توفرت أمامي لتعلم السباحة و لم أستغلها، وفجأة تذكرت كلام المدرب أحمد بكون السباحة لا تفيد في البحر فخفف ذلك قليلاً من ندمي.

كنت أتابع بقلق صعود الثنائيات التي سبقتني إلى الزورق وأخبار الغرقى الذين سمعت عنهم تتسامر في مخيلتي، نظرت إلى الخلف ووجدت صفًا طويلاً قد انتصب متأهبًا لمصيره كما أتأهب، ثم نظرت إلى الأمام ووجدت نفسي وقد أصبحت في مقدمة الصف، نعم بتّ وجهًا لوجه مع البحر! لقد انطلق كل من فَصَل بيننا وحان دوري، تساءلت في نفسي عمّن سينتصر دون أن أسمح لها المبادرة بالإجابة.

ولا أنكر أن روح الإصرار والتحدي اشتعلت في جسدي بشكل جزئي، كما لا أنكر أن في ذاك الموقف القليل من المتعة بالرغم مما فيه من الرعب. كنت تائهًا في مشاعري أتخبط كالغريق، لم ينقذني من ذلك سوى ذاك المهرب الذي صرخ وربّت على كتفي بقصد انطلاقي ومن أُمسِك بيده صوب البحر، فانطلقنا.

شعرت بكوني أركض على نعشي بالرغم من كون تلك المرحلة من الرحلة بسيطة نسبيًا، ولكن كم الأخبار التي سمعناها عن المهاجرين الغرقى صيّرها لتتحول إلى مرحلة مُرعبة بحق. من شدة الرعب كان بعض المهاجرين يرفضون المتابعة فور ابتلال أقدامهم بالماء ولذلك كانوا يتعرضون للضرب بقسوة حتى يضطروا لمتابعة طريقهم هربًا من الألم، أما النساء والأطفال فكان القارب يقترب من أجلهم معظم المسافة التي قطعناها نحن سباحة.

دُستُ مياه البحر بقدمي اليمنى فاقتحمت حذائي على الفور، شعرت ما بين شعور جميل ليس في محله وشعور مخيف تمامًا في محله، تابعت بشكل أسرع وبدأت المياه تغمرني شيئًا فشيئًا. ورغمًا عن سرعتي بدوت كأنني أمشي في الماء ببطء، ومع انقضاء بضع ثوانٍ بدأت أستشعر بالغرق، وعلى الفور تأكدت مخاوفي من كون سُتَر الإنقاذ وهميّة، وأنها مجرد ستارة لسرقة دولاراتنا لا أكثر. ومع مرور بضع ثوانٍ أخرى بدأت أغرق بالفعل، نعم بدأت أغرق! وفي ذات الوقت بدأت أقاوم الغرق بضرب الماء يمنةً ويسارًا وبأطرافي الأربعة، وأحيانًا أتعكز بالسترة الزائفة. ندمت، ندمت كثيرًا على ما أوصلت نفسي إليه، وأثناء ذلك سمعت صوت أحدهم وهو يصرخ قائلاً: (ها قد وصلت، ها قد وصلت) غبطته، لا بل حسدته على فكرة وصوله، وذاك الصوت يكرر ذات الصراخ وأنا أسترسل في الغرق.

أصابتني غصّة، كغصّة موت ربما، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، لا لن أموت هنا. انتفضت، تذكرت حاجتها لي، حاجة مريم، تمنيت لو قبّلتها قبل رحيلي، رأيتها أمامي، نعم رأيتها أمامي تشير بيدها للأعلى، استجبت لها على الفور ورفعت

رأسي كما أشارت وأخذت قراري (لن أخسر الروح الخامسة من أرواحي هنا في هذه المرحلة) قلت في نفسي.

رفعت رأسي أكثر وأكثر فخرج من الماء، أسعدني ذلك، ووجدت صاحب الصوت أمامي يصرخ مجددًا: (ها قد وصلت)، أطلق ذاك الصارخ يَدَيه بغية إنقاذي فالتقمتها بروحي على الفور وانتشلني. صدقًا لقد انتشلني من القبر ورفعني إليه حيث أرضيّة القارب فانكفأت عليها أقبّلها رغم قذارتها، ثم نهضت وبحثت عن اليد التي أنقذتني واستنشقت عبيرها المتسخ وقبلتها مرارًا رغم أنف صاحبها، قبلتها ألف مرة أو ما شابه، ثم انزويت وأخذت أضحك الضحك اللقيط وأقهقه من شدة الضحك. لا لم أجنّ، أعترف؛ كِدت أن أجن، و لم يوقفني عن الضحك سوى سائق الزورق العجوز المتصابي. كان لبنانيًّا، سبعيني العمر أو ما شابه، أمرني بازدراء بمساعدة زملائي المترامين حول الزورق، قام يذكرني بكونهم مهاجرين أمثالي، كم تمنيت لو أقول له: (بل ساعدنا أنت فنحن بشر أمثالكم)، بالطبع لم أقل له شيئًا وعملت بما أمرني به وساعدت من هم مثلي، المهاجرون.. البشر.

امتلأ الزورق بالمهاجرين إلى حد التكدس الذي اعتدناه، ولحظتها اشتقت للأيام التي كان يحصل المرء فيها على عدة أمتار مربعة من حوله تمتاز بخلوّها من أحد، إنها لنعمة عظيمة لا يعي وجودها البشر. وبشكل سريع أعطى اللبناني إشارة للمهرب المسؤول عن إرسال ثنائيات اللاجئين من الشاطئ للتوقف عن إرسال المزيد، وانطلق بالزورق على الفور بسرعة كبيرة، كان هناك مجموعة من المهاجرين في البحر ما زالوا في طريقهم إلى الزورق المنطلق، لا

استبطأتهم الأرض ولا انتظرهم الزورق، ولا أدري إن عادوا أدراجهم للشاطئ أم تابعت أرواحهم مسيرها صوب السماء وأجسادهم صوب غياهب البحر. تُركوا دون أدنى رحمة لا مغيث لهم سوى الله ومن ثم سُتَر النجاة الزائفة.

وبعد مضي دقائق وصلنا إلى السفينة المنشودة، كانت قريبةً منّا ولم نتنبه لوجودها بسبب الظلام، كانت هيئة السفينة غريبة كما السفن في أفلام الكرتون القديمة، كانت السفينة جدّ مرتفعة وفي المقابل كانت مساحتها صغيرة للغاية، تذكرت فيلم الكرتون الشهير "سندباد" أو ما شابه. لاحقًا عرفنا كونها من مخلفات نهر النيل وأنها لم تعد صالحة للسفر فابتاعها المهربون كما ابتاعوا أخواتها من السفن المتهالكة بمبالغ زهيدة بهدف استخدام كل منها لسفرة واحدة، دون الحاجة لتفي بالغرض الذي ابتيعت من أجله، كانت السفينة متهالكة تكاد تغرق دون أن تَمسسها المياه.

ربط العجوز اللبنانيّ زورقه بالسفينة وأمرنا الشروع بالتسلق على شبكة حبال غليظة، وعلى الفور بدأ المهاجرون التسلق تباعًا وسبقني إلى ذلك قرابة نصف ركّاب الزورق وأنا انتظر دوري، ومع بداية تسلقي تبيّن لي كم أن التسلق شاق أكثر مما بدا في بداية الأمر، المهم أنني وصلت كما وصل الجميع، وكم فاجأني امتلاء السطح بالكامل. ودون أن نملك أية لحظات للتفكير أجبرنا أحد المهربين على اتخاذ وضعية مشابهة لوضعيتنا في شاحنة نقل المواد "وضعية التكديس"، وبالطبع نفّذنا الأوامر، وأثناء ذلك بزغت الشمس، وتواصل تسلق المهاجرين للحبال الغليظة حتى امتلأت السفينة حتى بمقاييس المهربين أنفسهم، كانت حركتنا على سطح السفينة شبه مستحيلة، لاحقًا

تبين لنا أننا كنّا أربعمئة وخمسين مهاجرًا على السطح.

ظهر الطالح قبيل انطلاق السفينة بقليل وأعلمنا بضرورة عدم فتح إحدى البوابات الموصلة للقبو وأشار إليها، وأعلمنا أنها تفصلنا عن مئتين من المهاجرين الأفارقة من ذوي البشرة السوداء، وشدد على معلومة عدم فتح تلك البوابة بقوله: (مهما حدث!) لاحقًا سمعنا أنهم تكدّسوا بوضعيّة الوقوف!

وبينما كنت مُنشغلاً بمحاولة زيادة عدد السنتيمترات التي يحتلها جسدي وصلت إلى مسامعنا معلومة صاعقة مفادها أن لا قبطان للسفينة، تضاعفت مستويات استياء كل منّا، ولم تتناقص قيد أنملة عندما وصلت إلى مسامعنا معلومة أخرى مفادها أن المهربين اختاروا أحد المهاجرين لتعليمه قيادة السفينة مقابل مسامحته بالأجرة المطلوبة منه.

حقًا يا لنا من مغفلين! كان علينا توقع ذلك، فمَن مِن المهربين مَن يقبل بدخول مغامرة احتمالية الغرق فيها أكبر بكثير من احتمالية النجاة منها، واحتمالية دخول السجن – في حال النجاة من الغرق – أكبر من احتمالية الهرب منه. الأكثر رعبًا في الأمر أن تعليم القبطان الجديد لم يتجاوز الأسبوع، سبعة أيام فقط!

كان القبطان الجديد شجاعًا – هذا ما تبين لنا لاحقًا – بالرغم من تخفّيه بادئ الأمر، وكان بالتأكيد سيفعل لكونه سيسجن من كل بد في حال تم إنقاذنا وتم التعرف عليه. كما شيع بيننا أنه يملك جهاز اتصالات يدعى الثريا.

وأهم ما في الأمر أن السفينة انطلقت رغم أننا بالكاد شعرنا بحركتها، كانت بطيئة للغاية، وبعد مرور أقل من عشر دقائق توقفت

لخلل ما في محركها، هذا ما شيع بيننا، كان منظر الشاطئ كما هـــو، وعلى الرغم من أننا بالكاد تحركنا كانت أحلامنا قد أبحرت بعيـــدًا وانتهى الأمر، ومع توقف السفينة تبدّدت أحلامنا بلمح البصر وخيّم الصمت على جموع ركّاب السفينة، ولم يجرؤ أحدنا على الكـــلام، وأخذنا ننتظر وننتظر.

مرت ربع ساعة أو ما شابه دون جديد يذكر، قدم بعدها عدة زوارق تحمل مجموعة من المهربين، صعد بعضهم السفينة وانتظر البقية في الزوارق، كان السائق اللبناني من ضـــمن مجموعـــة الصـــاعدين، تكلموا مع بعض المهاجرين عن مشكلة السفينة، وبالطبع كان القبطان المتخفي واحدًا منهم، وفي المقابل كان باقي الركّاب منشغلين بالدعاء من أعماق قلوبهم لِتَتَيّسر أمور الرحلة ولتكتب النجاة للســـفينة بمـــن فيها، كلٌّ بلغته وكلٌّ للإله الذي يؤمن به.

أما أنا فأخذت جرّاء القلق أتلفت من حولي ووجدت أننا خليط كبير من الأعمار والأجناس والجنسيات والأحلام وأثناء ذلك وجدني أسعد وبسرعة رهيبة توجّه إليّ وجلس بجواري، أذكر أن مجموعة من الشبّان، سبعة شبّان أو ما شابه أخذوا يغنّون في مؤخرة السفينة، أمـــا أسعد فكان كل حديثه معي ومع من جاورنا عن حالة التكدس الـــتي بدت لصيقة لنا منذ بداية رحلة الهجرة. في الواقع كنّا نخشى الـــتفكير في غير ذلك. بالمناسبة أسعدني كثيرًا لم شملي مع أسعد على ظهر تلك السفينة.

انطلقت السفينة مجددًا، كانت بطيئة ولكنها على الأقل كانـــت تتحرك، ومع حركتها تحركت حُرّياتنا فوقتها لا سلطة لأحد منّا على أحد، فزمن المهربين ولّى من دون رجعة، ولذا بدأت تظهـــر بعـــض

الشخصيات من بين المهاجرين بمظهر الزعامات بحجة العمل على تنظيم أمور السفينة، والبعض منهم حاول فتح البوابة التي فصلتنا عن الأفارقة في القبو، ولكن زعامات أخرى منعتهم. كثيرًا ما تساءلت في نفسي عمّا سيحل في السطح في حال ازداد عدد الموجودين أكثر مما هو عليه!

أفتى البعض بأن عدم وجود أوزان كافية في القبو سيؤول لغرقنا ولذلك استثمر المهربون الفكرة ووضعوا هؤلاء الأفارقة بدلاً من الأوزان الميتة. بينما أفتى البعض الآخر أن وجودهم ما هو إلاّ استغلال لحاجتهم وما لهم واتزان السفينة من شيء، كما تدخل آخرون بكَون وجودهم في القبو ضرورة أمنية لنا. لاحقًا سمعنا أن المهربين يأخذون أجرة سنة كاملة من عمل هؤلاء المساكين كأجرة لرحلتهم.

كانت الرحلة هادئة ومطمئنة بشكل عام، وبالرغم من ذلك عملت ذاكرتي على استعادة ما ورد في نشرات الأخبار عن العديد من الغرقى والقليل عن الناجين، كان غدر البحر يرعبني، وكنّا نتناصح في ما بيننا في حالة غرق السفينة بمحاولة البقاء على سطح الماء، البقاء على سطح الماء لا أقل ولا أكثر! وعندما تنتابنا حالة تفاؤل جماعية كنّا نتساءل في ما بيننا عن وجهاتنا المقصودة في حال كُتبت لنا النجاة وتبيّن لي أن الجميع من حولي مثلي، لا وجهة معيّنة في بالهم، كان كل ما يشغل بالنا وقتها مجرد الوصول إلى اليابسة الأوروبية ومن ثم لكل حادث حديث.

كانت علبة سجائري مبتلّة فعرضّتها للشمس أقتل الوقت بانتظار جفافها، بينما كان كثير من المهاجرين يتتبعون مسار السفينة عبر هواتفهم النقالة بهدف الاطمئنان على صحة مسار السفينة وتقدير

الوقت المتوقع للوصول إلى أطراف القارّة الأوروبية. وأثناء ذلك لاحظنا ازدياد حالات الاستفراغ بيننا، وكم استغربنا جميعًا من عدم رغبة أيّ منّا على دخول دورة المياه القذرة، لم تكن قذارتها السبب و لم نعرف حتى يومنا هذا السبب في ذلك.

أبحرت السفينة قرابة السادسة صباحًا، ومساءً ما بين وقت المغرب والعشاء ظهر أحد الركّاب بمظهر غريب تيقنا بكونه القبطان، كانت ثيابه سوداء بسبب احتكاكه ببعض المعدات الميكانيكية أو ما شابه، أطلق هذا الراكب نداء استغاثة عبر جهاز الثريا. لم أسمع منه بأذني ولكن هذا ما شيع بيننا، وتابعت السفينة مسيرها.

ومع مرور الوقت الموحش ومع ازدياد ظلمة الليل ودرجة البرودة، ومع تعاظم مخاوفنا وازدياد سطوة اليأس على قلوبنا مرة أخرى، عشنا دقائق فظيعة قضيناها في جحيم الترقّب، وكل ذلك انتهى وكأنه لم يكن مع ظهور عدّة أضواء بعيدة أمامنا، وأجمل ما فيها أنها كانت تقترب، ولذلك انقلبت مخاوفنا لإحساس بالأمان، وعادت للسطح أحلام الجميع من غياهب الغرق المحتمل، وبدّلت ألسنتنا من أشرطة دعاء الله إلى أشرطة الغناء، واجتاحتنا رغبة عارمة بالقفز والرقص، نعم لقد أحسست بالأمان للمرة الأولى منذ لحظة عبوري الحدود السورية اللبنانية.

وأثناء اقتراب تلك الأنوار من سفينتنا توقفنا وقوفًا تامًا، سمعنا أن الزورق القادم من أجلنا هو من طلب ذلك، هذا ما شيع بيننا، وبشكل عجول بدّل قبطاننا ملابسه المتسخة ووضع جهاز الثريا بينها وألقاها في الماء، وصرخ بأعلى صوته بأن أحدهم قادم من أجلنا، سمعت ذلك بأذني هذه المرة!

ساعة أو ما شابه من الترقب، وصل بعدها زورق مزود بكشافات ضوء قوية أخذ يبحر حول سفينتنا ببطء، ونحن معشر المهاجرين على وتيرة ثابتة نطالب بالنجدة بأعلى ما استطاعت حناجرنا، كلٌّ باللغة الذي يعرفها. أبحر الزورق عدّة دورات حولنا ثم تكلم أحد ما منه وأعلمنا بكونهم سيعودون من أجلنا، وطلبوا منّا الانتظار بهدوء ورحل، ساعة أخرى أو ما شابه من الترقب وصل بعدها زورقان اثنان؛ أحدهما كبير والآخر صغير، ظهر ذات الصوت مجددًا ليعلمنا بأن الزورق الصغير سيكون مخصصًا للنساء والأطفال، وطلبوا منّا الالتزام بالهدوء التام من أجل سير عملية الإنقاذ بأسرع وقت ممكن بأمان تام.

اقترب الزورق من سفينتنا بهدوء وتبين لنا أن فيه مجموعة من رجال الأمن أخذوا يطالبونا بمساعدتهم في ربط زورقهم بسفينتنا، وفي غضون دقائق تم ربطهما معًا، وبشكل مباشر بدأت النساء بالنزول إلى الزورق، كلٌّ يتبعها أبناؤها، كانت طريقة نزول النساء بشعة للغاية، كنّ يتنقلن من يدٍ إلى أُخرى، بشكل يصعب على النساء الأحرار تقبله، ولكن ما باليد حيلة، تذكرت مريم وحمدت الله أنني لم أجلبها معي في رحلتي هذه. في الواقع حمدت الله على عدم جلبها معي في عدة مواقف ولكن في تلك اللحظة بالذات حمدت الله ألف مرة، ألف مرة على الأقل.

تم إخلاء النساء والأطفال بهدوء، وفور الانتهاء من ذلك قام رجال أمن الزورق بفك زورقهم عن سفينتنا وانطلقوا مبتعدين مفسحين المجال للزورق الثاني كي يقترب، ورجال الأمن يؤكدون علينا حفاظنا على هدوئنا التام وعدم الحركة، ثم قاموا بنصب جسر

خشبي بين زورقهم وسفينتنا، وبدأوا يطلبون منّا الانتقال إلى زورقهم حيث يختارون المهاجر تلو المهاجر، أفضل ما في الزورق أنه كان كبيرًا كفاية ليتسع لنا جميعًا، وفي المقابل كان أسوأ ما فيه أنه مطاطيّ، لذا واجهتنا مشكلة مرعبة في اضطراب السفينة مع سير كلٍ منّا على الجسر الخشبي، كان معظم المهاجرين ملتزمين بالدور الذي اختاره لنا رجال الأمن على عكس البعض الذين لأنانيتهم المفرطة اختاروا المخالفة مما سبب بعض الفوضى.

وبعد نزول قرابة مئتي مهاجر لم أكن من ضمنهم بطبيعة الحال، فاجأنا رجال أمن الزورق بفك الجسر الرابط ما بين سفينتنا وزورقهم، وفاجأونا أكثر إذ غادروا، غادروا بدون أيّة إيضاحات! وسط تساؤلات قرابة المئتي وخمسين مهاجرًا المتبقين على سطح السفينة عمّا جرى لزورق رجال الأمن وعمّا سيحدث بعد رحيلهم، كانت أحلك الشكوك التي راودتنا كونهم اكتفوا بما أنقذوه وانتهى الأمر!

ولكننا في المقابل لم نفقد الأمل، لا لشيء سوى لانعدام البديل أمامنا، فإما الأمل كوقود إضافي للحياة يحينا وإما القنوط ليستعجل موتنا، وأثناء تلك الفترة عادت أجواء الدعاء والتديّن لتخيّم على ألسنتنا نحن المهاجرين المتبقين على السفينة. ففاض الإيمان على السطح من جديد قرابة ساعةٍ من الزمن، ولم يصمد دقيقة مع عودة الزورقين من جديد، فتعالت صيحات الفرح والأمل وطلب الاستغاثة مرةً أخرى وكان ذلك كله على حساب رحيل الإيمان وانقطاع حبل الدعاء.

ولكن مع اقتراب زورق الإنقاذ هذه المرة هاج سكان قبو السفينة، نعم هاج المهاجرون الأفارقة، أغلب الظن أنهم أحسوا بوجود

زوارق الإنقاذ من حولهم، كنت ولا أدري إن كان ذلك يُعَدّ من حسن حظي أم من سوئه على أحد جانبيّ السفينة، بالتحديد عند حاجز الحماية الحديديّ الموجود على محيط سطحها، ومع استمرار حالة هيجان سكان القبو بدأت السفينة تتمايل بنا يمنةً ويسارًا وما كان مني إلاّ أن أمسكت بالحاجز المجاور لي بكل قوتي. وكذلك فعل الجميع، كلٌّ تمسك بما استطاع إليه سبيلاً.

ومع بداية تمايل السفينة انسحب زورق الإنقاذ سريعًا للخلف وطالبنا بالهدوء، وفي المقابل نظّم المهاجرون الأفارقة من حركة هيجانهم مما أدى إلى ازدياد حدّة تمايل السفينة، وفي غضون دقيقة أو ما شابه باتت السفينة تستلقي على جانبيها بشكل كامل، كنّا ننغمس في الماء عدة ثواني ثم نُنتَشل منه وندور نصف دائرة في الهواء نعبّ ما نستطيع من الحياة أثناء انغماس الجهة المقابلة للسفينة في الماء ثم تُعاد الكرّة وتنغمس جهتنا في الماء، وهكذا دواليك.

صدقًا لا أعلم كم استمر الحال هكذا، كما لا أعلم كم سقط منّا في الماء، كانت فكرة إفلات الحاجز الذي أمسكته تعني موتي المؤكد سواء غرقًا أو تحطيمًا تحت جسد السفينة الهائل، لذا حاولت الصمود جاهدًا، دقيقة أو دقيقتان أو ساعة أو دهر، لا أدري، لم أشعر بشيء، لم أستطع، أصابتني غصّة، كغصّة موت ربما، تذكرت مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، شعرت أنني كقطة من التي تحبها مريم، قطة بسبعة أرواح استنفذت للتوّ الروح الخامسة من أرواحها السبعة.

سمعت لاحقًا بعد نجاتنا أنه أثناء ما كنت أعانيه تجرأ بعض المهاجرين وتوجهوا للبوابة التي فصلتنا عن الأفارقة في محاولة

لتهدئتهم، وأعظم ما في ذاك الأمر أنهم نجحوا. قيل إن تمرجح السفينة أخذ العشر دقائق أو ما شابه. ولكن المهم في الأمر أن السفينة هدأت بعدها وعاد الاستقرار إليها من جديد.

وعندما تيقّن زورق الإنقاذ من هدوء السفينة عاود واقترب ببطء والحذر يتملّك ربّانه، وعمل بعض رجال الأمن على إنقاذ من سقط من المهاجرين في الماء، وبعد مضي القليل من الوقت عاودوا ونصبوا الجسر الخشبيّ بيننا، واستأنفنا النزول إلى الزورق بتنظيم أقل هذه المرة إذ ملّ الجميع انتظار التفاف طوق النجاة حول رقابهم، لذا سعى كلٌّ على حدة للخلاص المبكر دون أدنى اكتراث للتنظيم.

جاء دوري، أخيرًا! أشار لي أحد رجال الأمن للمضي نحوه، فرحت لإشارته، شعرت للمرة الأولى بكوني قد انتُخبت دون الخلق، نعم شعرت بالتميّز. سابقًا – أو بالأحرى قبل أقل من دقيقة من إشارة رجل الأمن – ظننت لحظة الإنقاذ لحظة عابرة لا يميّزها عن موقف الإنقاذ شيء ولكن تبيّن لي أنني كنت مخطئًا.

انحنى ظهري متراخيًا من تراكم التعب وارتجف جسدي ارتجافًا كما تفعل به القشعريرة، أظنها كانت قشعريرة الحياة. كدت أبكي، تقدمت خطوتين أو ما شابه، بكيت أو ما شابه، ضحكت أو ما شابه، في الواقع جننت أو ما شابه، نعم جننت أو ما شابه، ثم وضعت قدمي اليمنى على طرف الجسر الخشبي وألقيت عينيّ على طرفه المقابل أتأمله لبرهة، فشعرت بفظاعة طوله رغم قِصَرِه، ورغم شعوري الأحمق ذاك تقدمت بشجاعة فأر متخفٍّ قاصدًا عبور الجسر.

نعم تقدمت بجسدٍ متأرجحٍ اقتات الجوع والبرد والألم على أعضائه ومفاصله وأنسجته وأنفاسه وأحلامه، تقدمت بروحٍ منهكةٍ

أسرفت خمسة أسباع طاقتها بغية الوصول إليه. واجتزت الجسر! نعم اجتزته، بخطوات الرضيع الأُولى أو بخطوات العجوز الأخيرة لا أدري، بل لا يهم، المهم أنني اجتزته وانتهى الأمر.

ومع وصول قَدَمَيّ إلى طرف الجسر الخشبيّ الثاني التمست الأمان، التمسته حقًا هذه المرة، شعرت به وهو يغلّفني، تذكرت نكهته التي فقدها منذ زمن، إنها ذات النكهة التي شعرت بفقدانها يوم وداعي لأمي. وبرفقة ذاك الشعور الثمين أخذت أتابع نزول المهاجرين للزورق، المهاجر تلو المهاجر، وبعد نزول آخرهم صعد أحد رجال الأمن إلى سطح السفينة وتجوّل فيها ثم فتح بوابة الفصل العنصري التي فصلتنا عن الأفارقة في القبو وطلب منهم الصعود إلى السطح فصعدوا وشاهدناهم للمرة الأولى، ويا لها من مشاهدة!

كان ينتابني ظن بكون هيئاتنا فقيرة بائسة، ولكنني لمشاهدتهم اكتشفت كم كنت على خطأ! نعم خطأ جسيم، فهيئاتنا كانت ثريّة رغدة وذات بحبوحة نسبةً لهيئاتهم التي كانت معدمة يائسة قانطة صعلوكة بحق، لا أظن اللغة العربية قد أفرزت أيّة مفردات لتصف حالتهم تلك.

أعلَمَ رجل الأمن المهاجرين الأفارقة بامتلاء الزورق وبأنهم سيعودون من أجلهم بعد قرابة ساعة من الزمن، استغربت كونهم صدقوه، فأنا لم أكن لأصدقه! ثم نزل إلى الزورق وانطلق بنا مبتعدين، وأخذنا ننظر إلى السفينة ونحن نبتعد عنها، كانت سفينة أشباح بحق، لعنت منسق رحلة هجرتي السوريّ والفلسطينيّ الذي انتظرناه في المطار الجزائري ولعنت الطالح صالح ولعنت مُعتزّ ولعنت أخويهما وأضفت لهما أبويهما، ولعنت كل من عاونهم، سائقي العربات

والحافلات والشاحنات وذاك العجوز اللبناني الذي أوصلنا إلى السفينة، وبينما كنت أتذكر كل أولئك المجرمين الذين مررت بهم وألعنهم أبصرت أمامي سفينة عسكرية ضخمة ذات درج جانبي طويل.

توقف الزورق على مقربة من السفينة العسكرية، واقترب منها ببطء شديد إلى أن تلاصقا، ثم طلب منّا أحد رجال الأمن الصعود عبر الدرج الطويل الذي بات وقتها ملاصقًا لزورقنا، صعدنا كما أُمرنا الواحد تلو الآخر بهدوء تام لم نعتد مثله، كنّا أحيانًا نفهم ما يُطلب منّا من خلال نبرة أصوات رجال الأمن.

وفي الأعلى استقبلنا أحد ما يحمل على ظهره ما يشبه المضخة التي تباد بواسطتها الحشرات، وكان يمسك في يده مِرَش، وكانت وظيفته مقتصرة على رش كل لاجئ يصله، لاحقًا علمنا أنها عملية تطهير، في الواقع انتابني شعور مهين ولكنني لا أنكر أن فعلتهم مبرّرة، كما أنها مقبولة جدًا نسبةً لما واجهناه في رحلتنا من قبل.

صعدت ورفيقي أسعد من خلفي وتم تطهيرنا على التوالي، ومع إلقائنا لأول نظرة على سطح السفينة من بعد انتهاء مرحلة التطهير تبيّن لنا أنها مليئة بأمثالنا من اللاجئين، ولاحقًا سمعنا أنه تم إنقاذ سفينتين قبلنا. وبعد لحظات تقدم منّا أحد أفراد طاقم السفينة وبرفقته مترجم وطالبنا بالجلوس أرضًا، ثم طالبنا بإظهار كل ما نمتلكه من أوراق ثبوتيّة وأموال وأسلحة، كما طلب من كلّ منّا وضعها في سلّة منفصلة، وأثناء ذلك قام أحدهم بتوزيع السلال علينا، استلمت السّلة خاصتي وبدأت أُفكّ اللاصق والغطاء البلاستيكي الذي لففته على حاجياتي الخاصة. ونظرًا لخبرتهم في مجال انتشال اللاجئين من البحر

كانوا على معرفة بكيفية احتفاظنا بحاجياتنا، فوزعوا علينا سلالاً أكبر لنلقي فيها ما نتخلص منه من أشرطة اللاصق والأغطية البلاستيكية.

ولا يمكنني أن أنسى ملامح أحد أفراد طاقم السفينة الذي عمل من باب "التوثيق" على تصوير كلٍ منّا مع سلّته الشبه فارغة بالرغم من احتوائها على كل ما تبقى من أملاك صاحبها. وبعد انتهائهم من حفلة تصويرنا وزّعوا علينا أرقامًا ومنحونا على إثرها المياه والتفاح، كان طعم تلك التفاحة رائعًا للغاية، لا لشيء سوى لدخولها جسدًا أضناه الحرمان حتى عشش فمه المقفر. وكم كان من الجيد سماح أفراد طاقم السفينة لنا بالتجوّل "فقط" على أرجاء سطحها الذي نبضَ باللاجئين نيامًا وقعودًا.

كانت السفينة العسكرية مديدة القامة، عملاقة بحق، وبالرغم من ذلك استطاعت بدون جهد إبهاري بطفوها الرشيق، كانت تمامًا عكس "شبه السفينة" التي نقلتنا من مدينة زوارة إلى وسط البحر. بالمناسبة لاحقًا سمعنا أن منقذينا قاموا بإحراقها وإغراقها بعدما أخلوا اللاجئين الأفارقة منها. لا بد من أن منظرها كان بديعًا والنار تتضرم بها، وكم حمدت الله أنني لم أكن فيها أثناء ذلك!

وبمناسبة ذكر الإخوة الأفارقة وجدت نسبتهم بين سكان سطح السفينة العسكرية مرتفعة بشكل ملفت، ومع مكوثي وإياهم عدة أيام اكتشفت أن الشعوب الإفريقية مختلفة بعضها عن بعض وأن لكل شعب منهم شكلاً معينًا يميزهم ودرجة لون خاصة بهم، وكم تساءلت عن نظرة الشعوب الإفريقية إلينا نحن شعوب بلاد الشام!

كان الجوع قاسيًا والبرد قارصًا، لذا داومنا على خجل بطلب الطعام والبطانيات، وبعد تأخير لم نفهم سببه قام كادر السفينة

العسكرية مشكورًا بتوزيع عُلب صغيرة مثل علب السجائر، كان في كل منها غطاء بلاستيكي رقيق للغاية هدفه عزل الجسد عن الهواء البارد، لذا لفّ كلٌ منا نفسه بالغطاء البلاستيكي خاصته وتسمّر جالسًا في مكانه.

بحق أنهكنا التعب في تلك المرحلة من رحلة الهجرة رغم كونها أيسر وأجمل مراحلها، أظن أجسادنا أظهرت أثناءها كل ما تحمّلته من الإرهاق والتعب والجوع الذي ألم بنا طوال رحلة هجرتنا.

ومضت علينا ثلاثة أيام بلياليها ونحن على حالنا نجوب في فضاء البحر الأبيض المتوسط الشاسع، خطر على بالي كيف لو أننا لم نُنقَذ بعد! حمدت الله كثيرًا على كوننا في أمان، أمان للأبد – أو بالأحرى هذا ما ظننته – وتعاظمت أحلامي وأحلام الجميع وكان ذلك بالطبع على حساب اضمحلال دعائنا لله.

وفي اليوم الثالث من أيامنا على سطح السفينة العسكرية ظهرت أمامنا وعلى مد البصر العديد من الأنوار فأخذ الجميع يتساءلون عن المدينة التي ستستقبلنا، وأثناء ذلك تبين لنا أنها مدينة باليرمو الإيطالية، أذكر أننا وصلناها في تمام العاشرة صباحًا.

## الجزء الثالث..

- عمّي، أتشتري البسكويت؟ (بائع البسكويت، بوقار).
- لا، شكرًا. (العم، بأسى!).

الفصل السادس

# من إيطاليا إلى فرنسا

وقبيل وصولنا إلى ميناء مدينة باليرمو بقرابة نصف ساعة، خفّفت السفينة العسكرية من سرعتها، ثم تقدم باتجاهنا زورقان عسكريان صغيران بهدف مرافقتنا إلى الميناء. نعم أخيرًا ها قد أوصلتنا السفينة إلى أراضي القارّة الأوروبية، وأخذنا جميعًا نحن معشر اللاجئين نترقّب رسوّها على الميناء، أخذنا نترقّب على أحر من الجمر حتى توقفت بشكل كامل، كانت لحظات مؤثرة للغاية بالنسبة إليّ، إذ لم يتبقَّ لي سوى بضع دقائق أو بضعة أمتار تفصل قدميّ عن الأرض التي تركت من أجلها كل ما أملك. لم أتذكر مريم، مريم صغيرتي التي تحب القطط، لأنها ببساطة لم تغب عن ذهني طوال الليالي الثلاث السابقة.

كان في انتظارنا حشد كبير من البشر يحملون الورود بأيديهم، وكان في انتظارنا أيضًا عدد كبير من الصحفيين المتأهبين بكاميراتهم لاقتناص صورنا الرثّة، كما تم تجهيز بضعة خيام منها الكبير جدًا ومنها الصغير لاحقًا عرفنا السبب من ورائها، كما تم توفير عدد كبير من الحافلات. شعرت أننا مُشرفون على استقبال رسمي عالي المستوى، وتذكرت استقبالنا من قبل سيئ الذكر مُعتزّ، كما تذكرت استقبالي من قبل الشعب الجزائري الغاضب أثناء تدخيني السجائر في

نهار رمضان – بالطبع لا ألومهم بل ألوم نفسي – كنت أتمنى تصوير مشهد وصولي إلى إيطاليا ونزولي من السفينة العسكريّة، ولكنني للأسف مُنعنا من ذلك وحُذرنا من مغبة التصوير ذاك الوقت.

بدأ المهاجرون بالنزول من على سطح السفينة، أما أنا فبدأت أتخيل كيف ستحط قدماي على أرض كبرت وأنا أؤمن بأنها للأثرياء فقط، إذ كان دخول القارّة الأوروبية "باستثناء قبرص" حكرًا على أغنياء مجتمعنا. نزل ذوو البشرة البيضاء وتبعهم ذوو البشرة السوداء، ونزلت معهم؛ أقصد مع ذوي البشرة البيضاء، ولا أنكر أنني شعرت بالعنصرية وبانعدام العدالة تجاه ذوي البشرة السوداء في ذاك الأمر.

المضحك أن بعض اللاجئين أخذوا يحيّون الكاميرات بوافر السعادة كما يفعل نجوم الكرة والفن لا نجوم الطب والعلوم، كانت لحظات مليئة بتناقضات عصفت بذهني، فقبل أربعة أيام فقط كنّا في شبه سجن قذر نعاني من معاملة قذرة، أما الآن فنحن في أوروبا، القارّة الحلم. كم كنّا فرحين لحظتها! ولذلك لم أتخيل قط أن قصتي لم تنتهِ بعد وأن الأعظم ما زال في انتظاري!

تقدم نحونا بضعة أشخاص وطلبوا منّا الدخول إلى إحدى الخيام الكبيرة، وكان في الخيمة العديد من الأجهزة الطبية، وكانت اللغة الإنجليزية تسود الأجواء، واستقبلونا اللاجئ تلو اللاجئ وسألوا الجميع عمّا إن كانوا مصابين بالأمراض أو يشكون من الأوجاع، وأثناء ذلك كان اللاجئون يناقشون في ما بينهم عدم رغبتهم البقاء في إيطاليا، وبالطبع لا انتقاصًا منها بل لامتلائها بالمهاجرين بسبب كونها واجهة أوروبا، كما أن دولاً أوروبية أخرى كبريطانيا والنرويج

وألمانيا تقدم مزايا أفضل للاجئين من التي تقدمها إيطاليا، وهكذا اتفقت الغالبية العظمى منّا على كون إيطاليا مجرد نقطة عبور لا أكثر. بالمناسبة وجدت مدينة باليرمو فائقة الجمال.

كان يتم فحص كل خمسة لاجئين سويةً، ثم يدخلون إلى خيمة ثانية أصغر حجمًا فيها مجموعة من الموظفين الحكوميين، كانوا يجلسوننا في إحدى زوايا الخيمة ويستدعوننا الواحد تلو الآخر، وأثناء انتظار دوري تودّد لي ولمن معي العديد من الصحفيين مع كاميراتهم وكانت أسئلتهم محصورة بين عدة أمور؛ من أين أنتم؟ ولماذا هاجرتم؟ وكيف وصلتم إلى هنا؟ وكان أسلَمَ الأجوبة هو التعذّر بعدم القدرة على الكلام باللغة الإنجليزية، سمعت البعض يتجرأ، والبعض يتجرأ أكثر من اللازم.

جاء دوري، استدعاني أحد الموظفين الحكوميين وطلب مني وثيقة تثبت أنني سوريّ – لكون معظمهم سوريّين – حتى غير السوريين انتحل معظمهم الأصول السوريّة طمعًا في مزايا أفضل، ثم قام بتصويري مع خلفية بيضاء وأخذوا بصمتي ثم أعطوني رقمًا ثبّته على صدري ثم وجهوني إلى خيمة ثالثة، كان في الخيمة الثالثة مجموعة من الشباب المتطوعين قاموا بتوزيع الماء ووجبات طعام علينا، وطلبوا منّا الراحة وانتظار تجهيز الحافلات لنقلنا لأماكن مخصصة لاستقبال اللاجئين.

لم يتأخر تجهيز الحافلات، وتم توزيعنا عليها وحصل كلٌ منّا على مقعده الخاص، مقعد كامل! للمعلومة كان في حصول كلٍ منّا على مقعد خاص رفاهية لم نذق طعمها منذ فترة ليست بقصيرةٍ. ثم انطلقت بنا الحافلة دون معرفة وجهتها، وكان أسعد كالعادة بجانبي

تكاد عيناه تنطقان بالسعادة دون حاجتهما للشفتين، وبعد مرور ربع ساعة أو ما شابه توقفت الحافلة بجانب إحدى الكنائس.

كانت تدعى كنيسة باليرمو، أَعجَب المباني المعمارية القديمة التي شاهدتها طوال حياتي، وكان أمامها ساحة كبيرة في وسطها وعلى أطرافها بعض المسطحات الخضراء، وكانت ساحتها تزدان بالعديد من المنصات؛ بعضها يعرض الأطعمة والأشربة وبعضها يعرض ملابس مستعملة في حالة جيدة، كما تم تجهيز أماكن مخصصة لاستحمامنا، وكانت خدمة الإنترنت متوفرة، وكل شيء للجميع وبالمجان.

كنّا بالطبع لا نزال في جنوب إيطاليا، وفهمنا من اللاجئين الموجودين قبلنا في تلك المنطقة أن ذاك المكان مُعد للإيواء المؤقت، أما أسعد فاستفاد من خدمة الإنترنت لتحديد موقعنا، ثم قام بتحديد مكان أقرب محطة قطارات، وتبيّن له أن لوصولنا إليها علينا التوجّه أولاً إلى محطة حافلات، فتوجهنا إليها وركبنا إحدى الحافلات وأذكر أن تكلفة تذكرتها عن كل منّا كانت أكثر من يورو ونصف بقليل.

سارت الحافلة بنا قليلاً ووصلنا إلى محطة القطارات ونزلنا، كانت المحطة منظمة وأنيقة وتعجّ بالمسافرين، طلب أسعد من الموظفة المسؤولة عن بيع البطاقات تذكرتين لمدينة ميلان الكائنة في الشمال الإيطالي وبيننا وبينها مسافة طويلة للغاية، أخذنا البطاقتين ودفع كلٌّ منّا مبلغًا خياليًا؛ مئة وسبعون يورو، إنه ثروة في بلدنا، ولكن لا بديل أرخص من ذلك، لذا أقنعت نفسي بتحميل تكلفة ذاك القطار على تكلفة رحلة الهجرة ولحظتها شعرت بمقدار رخصه، أذكر أن الموظفة كانت شديدة اللطف معنا فوضحت لنا من تلقاء نفسها المكان الذي

علينا التوجه إليه كما وضحت لنا رقم رصيف القطار والساعة التي سينطلق بها.

فعلنا كما أملت علينا تلك الموظفة وكان لا يزال هناك ساعة من الزمن قبيل انطلاق القطار، فابتعنا الماء وبضعة عصائر ومأكولات خفيفة ثم صعدنا القطار. في الواقع استغربت من هيئة القطار الخارجيّة لكونها بدت قديمة للغاية، ولكنه في المقابل كان رائعًا من الداخل، كان مقسمًا لمجموعة من الغرف، كل غرفة فيها أربعة أسرة، اثنان على كل جهة، وأثناء انتظارنا في الحجرة اكتشفنا أن القطار سينطلق بحد ذاته إلى مدينة ميلان أي دون حاجتنا لتبديل القطار، من أقصى جنوب إيطاليا لأقصى الشمال، وبدون بذل أي مجهود، يا لنصيبنا الترف!

وانطلق بنا القطار وبدأت أتطلع إلى شكل الجسر الذي سينقلنا من شبه جزيرة باليرمو التي تواجدنا فيها إلى ما هو بعدها، أحقًا يوجد جسر أم لا! لا أدري، كان مخيلتي تخبرني بذلك، ترقبت وترقبت ولكنني لم أتحمل توفر الراحة غير المسبوقة، وشعرت بحاجة ماسة للنوم، فغصت في نوم عميق استيقظت منه وأنا في مدينة ميلان، صدقًا استيقظت دون أن أعي شيئًا سوى كوني نمت كثيرًا وعميقًا، نمت كجثة! وجدت نفسي حين استيقاظي غارقًا في عَرَقي رغم درجة الحرارة القطار المعتدلة، وكم ندمت على عدم استغلالي لمرور القطار في العديد من المدن الإيطالية فألقي نظرة عليها، (لعلها أكبر المصائب) قلت في نفسي، ولكنها لم تكن كذلك!

نزلنا من القطار وتجوّلنا بالقرب من محطة القطارات، ولاحظنا أن أجمل ما في مدينة ميلان بالنسبة إلينا كلاجئين جُدد هو ثراؤها

باللاجئين وخصوصًا القدامى منهم، وأثناء تجوالنا رأينا منصة كُتب عليها "مساعدات للاجئين" بعدة لغات، وكانت المنصة شديدة الازدحام. توجهنا إليها وانتظرنا إلى أن جاء دورنا وحينها سألنا أحدهم عمّا إن كنّا نعاني من أيّة أمراض أو أوجاع، ثم منحونا وجبة طعام وطلبوا منّا انتظار مجموعة من العربات ستعمل على توزيعنا لأماكن مخصصة لاستقبال اللاجئين، كان هناك ما يفوق مئة مهاجر بهيئات مُفزعة، شعور طويلة مبعثره، ولحى غير متناسقة، وكدمات على وجوه المعظم لم تُشفَ بعد، والأهم من ذلك ملابسنا شبه الرثّة التي يلتصق بها مزيج روائح لا يوصف.

انتظرنا العربات نحن الأشبه بالجثث المتحركة المعروفة باسم الزومبي، ولكن ليس طويلاً وبدأت العربات بالتوافد علينا وتوزيعنا على بعض الفنادق والعائلات المتبرعة لاحتضاننا، وفجأة أخبرنا بعض المتطوعين بأن الأماكن امتلأت وأننا نحن المتبقين سيتم إرسالنا إلى أحد الملاعب، كنت وأسعد وقرابة أربعين مهاجرًا كل من تبقّى، فوزعوا علينا بطاقات تخص مترو الأنفاق، ووجهونا للمترو وطلبوا منّا النزول بعد إحدى عشر محطة، وبالفعل نزلنا بعد إحدى عشرة محطة كما طلبوا منّا وبسهولة تامّة وجدنا ملعبًا كبيرًا دخلناه ووجدنا فيه خيمة عملاقة بجانبها عربة أمن، لاحقًا عرفنا أنها تُستخدم من قبل الجالية المسلمة لأداء صلاة الجمعة.

دخلنا الخيمة وكان فيها عدد كبير من المهاجرين والكثير من الأطعمة المنوعة والأشربة والبعوض! أخبرنا أحد اللاجئين أن تلك الخيمة تعد مكان فرز مؤقت ننتقل بعده إلى مكان فرز أفضل، حاولنا النوم ولكننا وجدناه شبه مستحيل فالتواجد الكثيف للبعوض كان

غير محتملاً مما اضطرنا للخروج ومن ثم ارتأينا العودة لمحطة المترو، لذا ابتعنا بطاقات جديدة وركبنا المترو وأحصينا إحدى عشر محطة مجددًا ونزلنا، وبحثنا على فندق لننام فيه، استقبلنا الفندق الثاني مقابل ثلاثين يورو لكلٍ منا، وكانت أهم أنشطتنا في هذا الفندق هو الاستحمام، الاستحمام الذي افتقدناه منذ زمن ليس بقصير، ولكن المشكلة غير المتوقعة التي واجهتنا بعد ذاك الحمام الرائع هو رائحة ملابسنا القذرة التي ظهرت جليًّا بعد تخلصنا من رائحة أجسادنا العفنة، والمشكلة الأكبر أننا لا نملك بديلاً عن ارتدائها مجددًا، فارتديناها وخرجنا بحثًا عن الطعام، وكان من حسن حظنا أننا تناولنا وجبة طعام من المطبخ التركي، ومن بعدها عدنا للفندق قاصدين النوم، النوم فقط.

وفي الصباح التالي كانت أهم أولوياتنا تغيير هيئاتنا، فحلقنا شعورنا مقابل ثلاثين يورو، ثم بحثنا عن ملابس ملائمة السعر، وابتعت زيًا رياضيًا جديدًا ونظارة شمسية، وبدلت ثيابي في أحد الأزقة وألقيت القديمة في القمامة وكذلك فعل أسعد. ثم لمحنا فواكه! نعم لمحنا تلك التي لم نتذوق أيًّا منها منذ فترة طويلة، باستثناء التفاحة على سطح السفينة العسكرية، فابتعنا حبتين من عدة أصناف وتناولناها بشراهة لا مثيل لها، ولن أخفي عليكم كم تفاجأنا من كونها تباع عندهم بالحبة الواحدة!

ومع تغيير هيئاتنا شعرنا بأننا تحولنا للتوّ من مجرد لاجئيّن إلى إثنين من فئة الأُناس المرموقين، وشعرنا بأننا عدنا للبشرية من بعد انقطاع طويل، وبعد ذلك توجهنا إلى منصة مساعدة اللاجئين التي كنّا عندها سابقًا، وهناك وجدنا العديد من اللاجئين الذين رافقونا في رحلة هجرتنا. المضحك المبكي أننا عرفناهم دون أن يعرفونا،

وعندما عرّفناهم بأنفسنا أبدوا استغرابهم. فاختلاف الملابس يصنع فارقًا، فما بالكم باختلاف النظافة الهائل المصاحب لاختلاف هيئتي الشعر والذقن!

وفي تلك الأثناء تمكن أسعد من التواصل مع مجموعة من أقرباء له، كانوا قد سبقونا في رحلة الهجرة وتمكنوا من النجاة والوصول إلى إيطاليا، كانوا ثلاثة رجال ومعهم فتاتان، وكان ما يميزهم عنّا امتلاكهم لخطة سير معيّنة، على عكسنا أنا وأسعد إذ كنّا نُساق تبعًا للظروف من دون هدى. وكانت خطتهم تتمحور حول الوصول إلى بريطانيا، وبدون أي طلب للاستيضاح أخذ أقرباء أسعد بالحديث عن مزايا اللجوء في بريطانيا؛ عن إجراءات لم شمل الأسرة السريعة، وعن الدخول المالية المرتفعة نسبيًا فيها، والمساكن الأكثر احترامًا المقدمة للاجئين، وبالإضافة إلى ذلك أن اللغة الإنجليزية تعد الأكثر عالميّة، والأهم من كل ذلك بالنسبة لي هو ما في تصوري المسبق من تطور مستشفياتها وخصوصًا في مجالات علاج الدم، ثم.. إنها بريطانيا!

اتفقنا على الانطلاق معًا، وكم أسعدني وجود هؤلاء الأشخاص معنا، بالأحرى كم أسعدني انضمامنا إليهم، منحونا الثقة والقدرة على التمسك أكثر بالأمل، وكانت خطتهم كالتالي؛ الانتقال من مدينة ميلان إلى مدينة باريس، وللوصول إليها كان لا بد من الاتجاه للجنوب قليلاً ثم المتابعة باتجاه الغرب، وذلك بسبب التشديد الذي يفرضه السويسريون على جميع المارة عبر أراضيهم من خلال القطارات، إذ سمعنا أن السويسريين يقومون بإعادة كل من يتم إلقاء القبض عليه من اللاجئين إلى المكان الذي قدم منه، سواء إيطاليا أو فرنسا أو غيرها. وكان الحل الوحيد لتلك المعضلة هو ركوب

سيارات خاصة، فالسيارات الخاصة لا يتم تفتيشها، ولكننا لم نجد من يعيننا على تلك الخطوة.

وأثناء اهماكنا في البحث عن الحلول المناسبة لوصولنا إلى بريطانيا التقينا برجل مغربيّ كانت مهنته مقتصرة على التخطيط بالنيابة عن اللاجئين لينقلوهم إلى أيّ البلاد الذين يرغبون بالوصول إليها، وذلك مقابل الأجرة المادّية بالطبع. وبعد الاتفاق معه أخبرنا بالخطة التي تناسبنا حسب وجهة نظره وكانت كالتالي؛ التوجه إلى مدينة نيس، فالحدود باتجاه تلك المدينة تكاد لا تخضع لمراقبة الجهات الأمنية، ومنها ننطلق إلى مدينة باريس، ومن ثم إلى مدينة كاليه، المدينة الفرنسية الأقرب إلى بريطانيا، ومن ثم لكل حادث حديث. كما ابتاع لكل منّا التذاكر المناسبة للوصول إلى مدينة نيس، وللأسف تبيّن لنا أنها كانت تتطلب تبديل العديد من القطارات.

وللحفاظ على المعلومات المدفوعة الثمن قمت شخصيًا بتوثيق كل ما نطق به ذاك المغربيّ، خطة المسير وأماكن تواجد محطات القطارات المنشودة وأماكن نزولنا وصعودنا من وإلى القطارات وأرقام الأرصفة ومواعيد الانطلاق، باختصار قمت بتدوين كل شيء. وفي الواقع كانت الرحلة بين ميلان ونيس الرحلة الأكثر تعقيدًا لي في أوروبا حتى يومي هذا، وبالتأكيد لن أنسى ما مررنا به من محطات عملاقة الحجم وساحرة الجمال.

وصلنا إلى مدينة نيس أخيرًا وشعرنا بكون ذلك إنجازًا لا يقدّر بثمن، وعلى الفور قمنا بحجز التذاكر إلى مدينة باريس، وخطر على بالنا بأننا كمهاجرين لا بد لنا من عدم إثارة الشكوك حولنا، لذا توزعنا على مقاعد بشكل متباعد نسبيًا وكنّا نتواصل مع بعضنا عبر

إشارات الأعين. وكانت أبرز مشاكل رحلتنا إلى باريس تبديل القطار لا في ذات المحطة بل في محطات مختلفة عن المحطة التي يتوقف فيها قطارنا، لذا اضطررنا لركوب المترو في فرنسا، وأجمل ما في الأمر أن لغة صديقي الإنجليزية نجحت بإيصالنا للمحطة المنشودة بالرغم من ضعفها نسبيًا.

وبعد رحلة طويلة مليئة بالحذر والتشويق وصلنا مدينة باريس آمنين، وكان طموحنا فيها ينقسم إلى قسمين؛ الأول أن لا يتم الإمساك بنا، والثاني مشاهدة برج إيفل الشهير الذي للأسف لم أتمكن من مشاهدته سوى عن بعد.

وأذكر يومها كانت باريس تشهد تواجدًا كثيفًا لرجال الأمن، وكم أسفنا لتمكنهم من القبض على أحد أقرباء أسعد الذي لحسن حظه وحظنا تُرك مباشرة، وعندما سألناه عن سبب ذلك أخبرنا أنهم تركوه فور علمهم بنيّته للخروج من فرنسا.

سببت لنا تلك الحادثة زيادة مخاوفنا وشعرنا بالخطر أكثر، لذا أسرعنا وتوجهنا لمحطة القطارات التالية حسب خطة ذاك المغربي وحجزنا التذاكر إلى مدينة كاليه، وفي تلك المحطة قامت الموظفة بمساعدتنا كثيرًا، فعلت كما فعل ذاك المغربي تمامًا ولكن من دون أيّة مقابل! وركبنا القطار كما في المرة السابقة بذات التوزيع المتباعد نسبيًا.

وكم أسرني أنني لمحت برج إيفل عندما تحرك ذاك القطار، غمرني إحساس بأنني على وشك الوصول لمبتغاي، وحتى ذاك الوقت لم يكن ليخطر على بالي قط أن الأسوأ ما زال قابعًا في انتظاري وأنني بتّ على بعد خطوة صغيرة منه.

# الفصل السابع

## البرّاد

واختصارًا للوقت عملت في القطار أثناء الطريق ما بين مدينتيّ باريس وكاليه على جمع العديد من أرقام هواتف المهاجرين الذين سبقونا إلى كلٍ من فرنسا وبريطانيا، بهدف استعدادنا في حال احتجنا أيّة استشارة أو حتى مساعدة، وكم حمدت الله على توافر خدمة الإنترنت، فلولاها لما تمكنت من التواصل مع أصدقائي في الشام الذين أمدوني بأرقام من يعرفونهم من المهاجرين إلى الأماكن التي ننشدها.

ومع اقترابنا من مدينة كاليه تواصلت مع أحد الأرقام المتوفرة معي وكان صاحبه قد تواجد فيها منذ فترة وجيزة، وبرحابة صدر وضّح لنا ما علينا فعله؛ أعلمنا بوجوب ركوب إحدى الحافلات – وأعطانا تفاصيلها – لتقلّنا بدورها إلى منطقة لم أعد أذكر اسمها ولا أذكر منها سوى كونها بعيدة عن محطة القطار، وأن بعد ذلك علينا ركوب حافلة أخرى – وأعطانا تفاصيلها أيضًا – لتوصلنا إلى ميناء كاليه المنشود.

وصلنا مدينة كاليه ليلاً، وللأسف لم تكن هناك أيّة حافلة في المحطة، كما أن المحطة كانت منعزلة بعض الشيء لذا اضطررنا للنوم فيها، وبالرغم من كوننا في شهر آب كان البرد قارصًا للغاية لدرجةٍ جعلتنا نتلاصق بعضنا بجانب بعض لمكافحة فقدان حرارة أجسادنا،

وبقينا على حالتنا تلك إلى أن قَدمت أول حافلة وكان ذلك قرابة الساعة الخامسة فجرًا، وكم أسعدنا ذلك! وسعدنا أكثر عندما تبيّن أنها مُتّجهة إلى المكان الذي ننشده.

صعدنا الحافلة على الفور، وأعترف أننا صُدمنا لكون سائقتها امرأة! لاحقًا اعتدنا الأمر. وبالمناسبة تعدّ مدينة كاليه مدينة هادئة وجميلة، وجلّ سكانها في غاية الاحترام واللطف، وكان أغرب ما فيها عدد اللاجئين الهائل الذي يجتاحها، كانت نسبتهم أكبر بكثير من نسبة فرنسيي المدينة، وكان المهاجرون متناثرين في كل مكان، كلٌ ينتظر فرصته السانحة للدخول إلى الأراضي البريطانية.

أوصلتنا تلك السائقة إلى محطتنا التالية، حيث من حسن حظنا كانت في انتظارنا الحافلة التي علينا ركوبها، وكان من الجميل أنها لم تتأخر في الانطلاق، واستغرقت الطريق قرابة الربع ساعة لتوصلنا إلى محطتنا الأخيرة والتي كانت ميناء كاليه، الميناء الكبير الذي يتجمع فيه العديد من البرّادات على هيئة شاحنات ضخمة مليئة بالمواد الغذائية القادمة من كافة أنحاء أوروبا، لتنتقل بعدها إلى الأراضي البريطانية عبر عبّارات عملاقة.

وبالنسبة لنا نحن معشر المهاجرين وجدنا أكبر عائق أمامنا يفصلنا عن الأراضي البريطانية يكمن في ذاك السياج المعدني الهائل الذي يقارب ارتفاعه الستة أمتار والذي يضرب بجذوره حول الميناء، وكان السياج مزودًا بالعديد من كاميرات المراقبة، ولاحقًا علمنا أنه يُحرس ويُراقب من قبل رجال أمن بريطانيين.

نزلنا بالقرب من الميناء حيث يتواجد العديد من المهاجرين، الذين تجمعهم ذات الخطة التي نملك، وكانت كالتالي؛ التسكع حول

الميناء قرب السياج المعدني وانتظار الوقت الملائم لتسلقه وتجاوزه ثم التوجه بأسرع ما يمكن صوب إحدى الشاحنات العملاقة للاختباء على المحور الرابط ما بين العجلات الخلفية، والتمسك جيدًا إلى أن تنتقل الشاحنة إلى العبّارة وتنطلق من الميناء.

ووقتها بإمكان المهاجر إظهار نفسه وبإمكانه الاستمرار بالاختباء حتى يصل الأراضي البريطانية. وذلك لكون طلب اللجوء من العبّارة أو من الأراضي البريطانية يعد مقبولاً بشكلٍ مؤكد. ومغامرة ناجحة كتلك قد تستغرق ساعة أو ما شابه من الزمن. وبالإضافة لكون الموضوع مقلقًا ازداد قلقي أكثر لكوني لم أتخيل مكان الاختباء في الشاحنة وهو ما أكّد وضوحه لي كثيرون.

ولكن مشكلة تلك الخطة كمشكلة سائر خطط تهريب اللاجئين، تعتمد على الحظ! فبعض المهاجرين نجح بالوصول من خلال محاولته الأولى والبعض نجح من خلال الثانية والعديد منهم لم يتمكن حتى من المرة العاشرة، وشاهدت بأم عيني أحد المهاجرين وقد أمسكت به إحدى دوريات رجال الأمن بعد اجتيازه السياج المعدني.

قبل فترة من الزمن كان يتم طرد كل من يُلقى عليه القبض متسللاً من سياج الميناء إلى خارج فرنسا، أما في فترة وجودنا حول ميناء كاليه فكان كل ما يفعله رجال الأمن هو طرد اللاجئ من الميناء. أخبرني أحد اللاجئين أنه تم الإمساك به في محاولته الثالثة من قبل دوريّة أمن فرنسية، قدمت له اعتذارها بلطف لكونهم مُسيّرين لا مخيّرين من قبل رجال الأمن البريطانيين، كما تمنّوا له حظًا أوفر للمرة القادمة.

وفي مساء أول يوم قضيناه في مدينة كاليه ظهرت أمامنا مشكلة لم نحسب لها حسابًا، فأين سننام؟ كان معظم المهاجرين يستخدمون

أكياسَ نوم خاصّة، ولكننا لم نملك أيًّا منها، لذا بدأنا عملية البحث عن فندق ما، وكم ساءنا أن الفنادق رفضتنا على التوالي بحجة حجز كامل غرفها للزوّار البريطانيين. وفي أحد الفنادق التقينا بموظفٍ جزائريّ الأصل، توسلنا إليه كي يسمح لنا المبيت في الفندق الذي يعمل به ولكنه أبى بشكل صارم، ومع المزيد من توسلاتنا سمح فقط للفتيات بالنوم في الفندق حيث يعمل، ورغم ذلك طلب مبلغًا باهظًا جدًا.

دخلت الفتاتان الفندق وانطلقت مع باقي الفريق للبحث عن مكان لنبيت فيه ولكن من دون جدوى، كان البرد قارصًا للغاية، لم أشعر ببرد مثله في حياتي قط. صحيح أنني اشتكيت لكم البرد مرارًا وتكرارًا، ولكن هذه المرة كانت بالفعل مختلفة.

وعن طريق المصادفة سألنا أحد اللاجئين عن توفر مكان لمبيت من هم أمثالنا، وبالمناسبة تستطيعون اكتشاف اللاجئين من ثيابهم. فأخبرنا عن بناء مهجور ينام فيه العديد من اللاجئين وتبرع بإعطائنا إحداثياته، وقبيل وصولنا لذاك المبنى بقرابة الخمسين مترًا بدأ يظهر من حولنا العديد من المهاجرين الشباب وكان باديًا عليهم التنمّر بوضوح، كان منظرهم مخيفًا وعليهم آثار التعاطي؛ تعاطي كل شيء ممكن، وما كان منهم إلا أن أمسكوا بواحد منّا وهددوه بالضرب وكادوا أن يفعلوا لولا أن تجمعنا حول رفيقنا المسكين وأخذنا نقنعهم بأننا نبحث عن مجرد مكان للنوم، وأثناء اضطراب الموقف تدخل أحد اللاجئين وكان يتحدّث العربية والفرنسية ووضح لأولئك المتنمّرين كوننا مجرد لاجئين لا أكثر ولا أقل، كما وضح لنّا أن تلك المجموعة تطارد كل من يشتبه بكونه من النازيين من هذا المكان كنوع من حمايته.

تابعنا للمكان المنشود ووجدناه شديد الازدحام، كان من الخارج مزدحمًا فما بالكم بالحال داخله! وبعد بحث طويل وجدنا مساحة صغيرة قابلة نسبيًا لتتسع لنومنا، فاحتللناها وبيتنا النيّة للنوم فيها، ولكن البرد بادر هذه المرة وأمسك بأجفاننا وأبى تركها، كنّا في حالة مزرية، جوع وبرد وتعب ونفسيّات محطمة.

ومع بزوغ الفجر رفعنا راياتنا البيضاء معلنين انتصار الأرق علينا، وتوجهنا منكسرين باتجاه الفتاتين في الفندق واصطحبناهما معنا لتناول طعام الإفطار، وبالرغم من أن الوجبة التي حظينا بها مجرد الخبز والبطاطا المقلية وجدناها جدّ لذيذة. وفور انتهائنا من تناولنا لطعام الإفطار قام أحد أقرباء أسعد بإجراء مكالمةٍ ما، وبيّن للطرف المقابل على الهاتف أنه يتواجد في مدينة كاليه برفقة مجموعة من المهاجرين. لم أفهم من تلك المكالمة شيئًا ومع انتهائه منها أخبرنا المتصل أن هناك من سيأتي إلينا غدًا من بريطانيا، لوهلة شعرت أنني بتّ قريبًا من أحد ما في هذه القارّة البعيدة!

وكما وعد، وصل ذاك الشخص من بريطانيا صبيحة اليوم التالي وشرح لنا جميعًا خطته لتهريب الفتاتين مع الرجل الذي هاتفه، وطمأن بقيّتنا أن بإمكاننا دخول الأراضي البريطانية بذات الطريقة مع ذات المهرب مقابل ألفي جنيه إسترليني! وبالطبع يُعَد هذا المبلغ بالنسبة لي ثروة لا أملكها، لا أنا ولا حتى أسعد، وربما ولا حتى معًا! ولكن الجيد في الأمر أن سداده سيكون بعد اجتيازنا للحدود البريطانية.

كان ذاك الضيف كالملاك المنقذ بالنسبة لنا جميعًا، إذ كَفِلَنا أمام المهرب الذي اختاره ليهّربنا من خلاله إلى الأراضي البريطانية،

للمعلومة يشترط المهربون وجود شخص ما يكفل زبائنهم من داخل بريطانيا بهدف ضمان حقوقهم، كما تعهد الرجل بمساعدتنا فور وصولنا إلى الأراضي البريطانية.

وبعد تناولنا طعام الغداء من ذاك اليوم التقينا بالمهرب، كان يستوطن جزءاً من غابة ومعه العشرات من المهاجرين، كان يسكن بعضهم الأكواخ الخشبية وبعضهم الآخر الخيام. وكان المُهرّب ذا هيئة مُرعبة، تشعر بإمكانياته الإجرامية من مجرد النظر إليه بالرغم من كونه ما زال فتيًّا، كان بعمر الخامسة وعشرين أو ما شابه، وبعد محادثة قصيرة ما بين المهرب وضيفنا من بريطانيا، أكد لنا الضيف على شرط الألفي جنيه إسترليني، وأن الفتيات سيذهبن إلى بريطانيا مباشرة، أما نحن فسننتظر مع المهاجرين في معسكر المُهرب.

وفي صباح اليوم التالي وصلتنا معلومة مفادها أن الفتاتين وصلتا بريطانيا بسلام مع شحنة من المواد البلاستيكية في صندوق إحدى العربات رغم أن رجال الأمن البريطانيين لاحظوا وجودهما. يبدو أنهما من ذوات الحظ الرائع.

أما خطة المهرب بالنسبة لنا نحن فكانت كالتالي؛ الذهاب إلى إحدى الاستراحات القريبة من كاليه حيث يستريح سائقو الشاحنات الضخمة المتجهة إلى بريطانيا، وهناك يختار المهرب بحنكته ودهائه الشاحنة المناسبة لتهريبنا، ويقوم بالتسلل نحوها وكسر بابها وإدخالنا فيها، ومن ثم يعطينا بعض التوجيهات ويعود أدراجه.

ولاحقًا عرفت توجيهاته وكانت كالتالي؛ ستسيرون قرابة خمس وثلاثين دقيقة ثم تتوقف الشاحنة، ثم تتابع خمس دقائق ثم تتوقف، ثم تتابع خمس دقائق ثم تتوقف لمدة ربع ساعة، بعدها تتحرك الشاحنة

وستشعرون بكونكم في سفينة تتمايل في البحر، وبعد قرابة الساعة من الزمن ستتحرك الشاحنة من جديد وتنتقل للأرض، وفي تلك المرحلة تكونون في بريطانيا، ووقتها بإمكانكم الصراخ وطلب النجدة.

كانت خطة المُهرب "نظريًّا" سهلة للغاية، أسعدنا ذلك خصوصًا لكونها مُقترنة بالحظ وبمهارة المُهرب باختيار الشاحنة، وليس فيها أي مجال للخطأ. ونمنا ليلتها في معسكر المُهرب الذي سمعنا لاحقًا أن السلطات الفرنسية قامت بإحراقه. وفي ذاك المعسكر وجدت ملابس مُستعملة أنسب مما كنت أرتديه فارتديتها لتقيني أكثر من البرد، ولحسن الحظ كان هناك جمعية خيرية توزع على اللاجئين الطعام بالمجان، وبذلك تأمن المأكل والمشرب والملبس ومكان المبيت.

كان أمام المهرب العديد من اللاجئين ليعمل على تهريبهم، بمعنى آخر كان أمامنا صف طويل، ولكن وعود ضيفنا من بريطانيا بزيادة أجرة المهرب أعطت أقارب أسعد أولوية أمام الجميع، وبعد ثلاثة أيام أجرى المُهرب محاولته الأولى لتهريبهم، أخذت من الوقت ما بين السادسة عصرًا إلى الحادية عشر مساءًا، وللأسف كان قد كشفهم سائق الشاحنة وطردهم، كما وتوعدهم بإبلاغ رجال الأمن عنهم، وفي اليوم التالي كانت محاولتهم الثانية التي باءت أيضًا بالفشل.

وفي اليوم الخامس كانت محاولتنا الأولى، أنا وأسعد، ولولا محاولات تقربنا الكثيرة من المهرب وضيوفه بهدف إعطائنا الأولوية ما كانت محاولتنا في ذاك اليوم – ويا ليتها لم تكن – كنّا اثني عشر رجلاً، لاحقًا تبيّن أن بيننا فتاة مُتخفيّة بلباس رجال، وكانوا جميعهم أكرادًا باستثنائنا أنا وأسعد بالطبع.

وكانت خطة تهريبنا كالتالي؛ انتقلنا إلى بلجيكيا، بالتحديد إلى إحدى الاستراحات القريبة من الحدود الفرنسية، ومن بعد استطلاع سريع ارتأى المهرب اختباءنا خلف أحد التلال القريبة من الاستراحة. ومن موقعنا ذاك أخذنا نراقب الشاحنات عن كثب دون أن ندري سبب مراقبتها. بالنسبة لي لم ألحظ سوى أن لبعض السائقين مرافقين وبعضهم بدون.

انتظرنا لمدة ساعتين أو ما شابه من دون جدوى، وأثناءها دأب الأكراد العشرة على طرح العديد من الأسئلة علينا أنا وأسعد، كانوا يسألوننا عن طبيعة مناخ بلادنا وأماكن سكننا والكثير من تفاصيل حياتنا اليومية كسوريّين، لم نعرف مغزى أسئلتهم إلاّ لاحقًا، إذ كانوا يبيتون النيّة لانتحال الجنسيّة السوريّة طمعًا بمزايا لاجئين أفضل كونهم قادمين من بلاد أنهكتها الحرب على مدار عدة أعوام.

أشار لنا المهرب بيده بشكل مفاجئ بمعنى الانطلاق، فانطلقنا باتجاه إحدى الشاحنات، ولحظتها تذكرت انطلاقتي السابقة نحو البحر فتفاءلت وفي ذات الوقت تشاءمت من قسوة ما حل بي بعدها. كسر المهرب قفل باب الشاحنة الخلفي بسهولة كما السحر وفتح بابها، وتبين لنا أن الشاحنة عبارة عن براد ضخم معبئ بشكل كامل بصناديق العنب، كان ما بين أعلى الصناديق والسقف نصف متر أو ما شابه.

أمرنا المهرب بالصعود على متن الشاحنة تباعًا ففعلنا، وكنت تاسع الصاعدين، وكان على كل من يصعد الزحف فوق أعلى صندوق عنب باتجاه مقدمة الشاحنة كي يترك المجال لمن بعده كي يفعل مثله. وبعد صعود آخر اللاجئين أمسك المهرب بمقبض الشاحنة

وألقى علينا نظرة أخيرة لم أفهم معناها! تساءلت إن كانت يقصد بها وداعًا ما أم ماذا؟ لوهلة ظننته يود حفظ أشكالنا ليحسب أرباحه من التجارة بأرواحنا عند عودته إلى مخيمه، (مافيا، إنه رجل مافيا) قلت في نفسي.

برد لاسع قارص أليم، وظلام أسود قاتم دامس، اكتمل مع إغلاق المُهرب لباب الشاحنة، وبذلك لم يتبقَ بين أيدينا سوى بضعة تعليمات بسيطة "ستسيرون قرابة خمس وثلاثين دقيقة ثم تتوقف الشاحنة، ثم تتابع خمسة دقائق ثم تتوقف، ثم تتابع خمسة دقائق ثم تتوقف لمدة ربع ساعة، بعدها تتحرك الشاحنة وستشعرون بكونكم في سفينة تتمايل في البحر، وبعد قرابة الساعة من الزمن ستتحرك الشاحنة من جديد وتنتقل للأرض، وفي تلك المرحلة تكونون في بريطانيا، ووقتها بإمكانكم الصراخ وطلب النجدة".

لاحظت ونحن في داخل الشاحنة أن الإيمان عاود زيارة قلوبنا كما عاود الدعاء المرور على ألسنتنا، وأخذنا ننتظر، انتظرنا ثم انتظرنا، طال الأمر ساعة من الزمن أو ما شابه دون تحرك الشاحنة ولو قيد أنملة، تساءلنا رغم كوننا على يقين إن كان هناك أمر ما أم لا، نعم لقد انكشف أمرنا وقضي الأمر، تساءلنا فيما بيننا أن لِمَ لا يطردنا السائق من شاحنته كما تجري العادة وينتهي الأمر! لم لا يدعنا وشأننا للمحاولة مرة أخرى مع سائق آخر!.. لِمَ لا يَفتح باب الشاحنة!

اتصل أحد الرجال الأكراد بالمهرب ليسأله عما يجري، فأجابه ببرود بأننا قد انكشفنا وانتهى الأمر، وأنه بدوره ما زال يراقب المشهد عن بعد. (سيقتلنا) قلت في نفسي، نعم كان ليقتلنا ذاك

السائق، فلا رابط بين اكتشافه لأمرنا وحجزنا داخل الشاحنة سوى أمر واحد ألا وهو قتلنا.

ومع يقيني من حقيقة النيّة القذرة لسائق تلك الشاحنة، ومن دون عناء يُذكر تذكرت تساؤلاً سمعته من الرواية الشهيرة "رجال في الشمس" تقول: (لماذا لم يدقّوا جدران الخزان!) وبدأ الخوف ينتابني تدريجيًا ولكن سريعًا، وهكذا إلى أن تملكني الذعر، نعم ذُعرت لفكرة أن يكون الراحل كنفاني قد كتبها في من هم أمثالي! (لا بد لنا من طرق الجدران، نعم لا بد من ذلك!) قلت في نفسي.

وعلى الفور بدأت أطرق جدران الخزان، أقصد جدران الشاحنة! وبكل قوتي، وأخذ الجميع يفعلون مثلي، نعم لقد طرقنا الخزان يا غسّان ولكن من دون جدوى. وكم ندمت لعدم قراءتي روايته! وأخذت عهدًا على نفسي بقراءتها في حال نجوت مما أنا فيه.

وطال طرقنا لجدران الشاحنة لأكثر من خمس دقائق، ويرافق ذلك صراخنا واستغاثتنا بوجود أطفال معنا آملين بذلك التأثير بعض الشيء على القلب المتجمد لذاك السائق. ولا أدري لماذا كنت على ثقة بحدوث أمر ما، وبالفعل حدث ويا ليته لم يحدث! إذ أدار السائق جهاز التبريد، وأظنه أداره إلى أقصى درجة ممكنة. فاتحدت علينا عوامل الأسى مرة واحدة، برد قارص وظلام قاتم في مساحة أصغر من تلك التي تعنيها كلمة القبر، يا لها من توليفة مفزعة!

وبدون تنسيق ولا حتى أدنى تفكير تراجعنا للخلف تباعًا متفائلين بدرجة حرارة أخفض في مؤخرة الشاحنة، وأثناء ذلك شعرت بالعنب البارد ينعصر تحت جسدي الأبرد. وكم أصابنا

الاستياء مع وصولنا لمؤخرة الشاحنة عندما تبين لنا أن الحرارة فيها هي ذاتها كما في مقدمتها.

وبعد مرور قرابة خمس دقائق أخرى بدأنا بين الفينة والأخرى نؤكد بعضنا بعض فكرة تعرضنا للتجمد خلال مدة أقصاها الساعة الواحدة، وأثناء ما تبقى من وقتنا قُبَيل التجمد حافظنا على ديمومة طرقنا على جدران الشاحنة كي لا يعاتبنا غسان في حال التقينا به في العالم الآخر في القريب العاجل.

وأثناء ذلك هاتف أحدهم المُهرب وطلب منه كسر باب الشاحنة، وطالبه باستخدام القوة في حال اقتضى الأمر، ولكنه اعتذر ببرود خوفًا على نفسه، نعم لقد اعتذر! اتخذ الرجل المافيا المجرم وضعية الرجل الدجاجة الأحمق.

وبعد مرور ربع ساعة أو ما شابه أخرى توقف التبريد، تفاءلنا لذلك وأخذنا نترقب بباذخ الفرح فتح باب الشاحنة، ربع ساعة من التفاؤل انتهت بإعادة تشغيل التبريد من جديد، وبات تشغيل التبريد لمدة نصف ساعة ثم إطفاؤه لنصف ساعة أخرى الإجراء الروتيني لذاك السائق. كم افتقدت صفعة مُعتزّ، وكم افتقدت الشاحنة التي تكدّسنا فيها وحطّمت أجسادنا، وكم اشتهيت مياه البحر التي ابتلعتها قبيل وصولي إلى زورق ذاك اللبناني، كما اشتهيتها ذاتها التي شربتها أثناء انتفاضة الأفارقة في قبو شبه السفينة التي حملتنا إلى عرض البحر.

وبذلك بات حالي سجينًا في شاحنة، ومحاصر من قبل صناديق عنب تمنعني من الحركة إلا قليلاً، وأتعرض للقتل البطيء بواسطة الهواء البارد، لعمري إنها أداة قتل جديدة لم أعرفها من قبل قط، و لم أكن لأتوقعها في يوم ما، وبالطبع لا أتمناها ولا حتى لعدوّ. نعم إنها من كل

بد أصعب من الموت بالرصاص، فعلى الأقل في الموت بالرصاص تنال رحمة إنجازها لمهمة قتلك بسرعة فتخلد سريعًا للنوم الرؤوم.

بكيت نفسي كثيرًا، دون دموع، دون نشيج، بل أيضًا دون حزن، ففاجعة النهاية تلبّد أعظم الشعور. ولا أنكر أنني بالرغم من كل ذلك كنت لا أزال على أمل ضئيل بالنجاة، أمل أخذ يتضاءل رويدًا رويدًا مع مرور الزمن.

دخلنا الشاحنة قرابة الساعة الحادية عشرة مساءً، ومع دخولنا بدأ عداد معاناتنا بالعمل، لا معاناة البرد بل معاناة التعرض للتجمد، معاناة الاحتضار والاقتراب من الموت، وفي الجهة المقابلة كان التبريد يشتدّ تارة ويستريح تارة، تبًا للمكيف من اختراع! ومرّ الوقت بطيئًا ونحن أشباه المتجمدين نتساءل في ما بيننا عن أيّ الأعذار الذي مكّن قلب ذاك السائق القدرة على التصرف معنا على ذاك النحو!

(لا بد من أنه يسعى لقتلنا) نطقت بها ألسنتنا المثقلة ونبست بها شفاهنا الباردة آلاف المرات، وأثناء ذلك أخذت حركة أطرافنا تثقل أكثر، وبات في حركة كل ذراع ألم، وفي حركة كل ساعد ألم، وفي حركة كل كف، وكل اصبع! بات في حركة كل ما قد يتحرك ألم في ألم، حتى في رمشة العين بات ألم. لذا اعتزلت كل شيء حتى رمشة العين موفّرًا على نفسي ألمها، فما فائدة العين المبصرة في ظلمة الليل الحالكة. ولكنني مهما اختصرت من الحركة لم أتمكن من اختصار عملية التنفس!

لم تكن عملية التنفس بعمليةٍ اعتياديةٍ البتّة، بل كانت مخاضًا قاسيًّا على مدار الزمن، فكما قلت لكم سابقًا كان في كل حركة نقوم بها ألمٌ امتاز بكونه في مَحل مُسببه، وأقصد بذلك أن ألم حركة

الساعد محله الساعد، وأن ألم حركة كف اليد محله كف اليـــد، وألم حركة الإصبع محله الإصبع. أما في حال التنفس فكان الألم مختلفًـــا، كان عذابًا لا يطيقه جسد، وحده تأخر الموت من مكننا من مقاومته، فألمه يمتد من الأنف البارد الذي يزيده الهواء المثلّج برودةً، وينتقل الألم مجراه مجرى الهواء للبلعوم ومن ثمّة إلى الحنجـــرة والقصـــبة الهوائيـــة والشعب الهوائية والرئة فيمنح كلاً منها من برده الخاص! ويـــا لآلام الأضلاع جرّاء التنفس، كم كرهت الزفير! وكم كرهت الشـــهيق أكثر! كانت الآلام شديدة وذلك دون الأخذ بالاعتبار الآلام النفسية المرافقة لها!

واستمر الحال على ما هو عليه من الساعة الحادية عشرة مســـاءً حتى السابعة صباحًا، حالة ثابتة ذات آثار متعاظمة، ستتســـاءلون إن فتحت بوابة الشاحنة الساعة السابعة صباحًا أليس كذلك؟ الجـــواب هو لا، لم تفتح! وفي المقابل تبرع أحدهم ليقـــول: (لم يتبـــقَّ لـــدينا أكسجين)!

لم يتبقَّ لدينا أكسجين! يا لها من جملة قاسية، معلومة في غـــير محلها، أقسى حتى من الهواء المتجمد، في سماعها فظاعة أكثر حتى ممـــا في الشهيق! انتفض جسدي المتجمد فور سماعي لها بحركـــةٍ بـــدت كاستباق الموت، ومعها تفتحت عيناي على وســـعهما بحثًـــا عـــن الأكسجين الذي أُشيع نفاذه، ولكنني كما توقعت لم أجـــد ســـوى الظلمة، إنها الظلمة ذاتها ولكن رؤيتي لها باتت أشد وحشة، وأخذت أتخبط باحثًا عن الهواء، أخذت أتحسسه بـــأنفي يمنـــةً ويســـارًا دون جدوى، أتخيل حال أنفي وقتها كحال الحارث بـــن العبـــاد حـــين تحسست يداه فرسه "النعامة" قائلاً:

قربـــا مـــربط النعامـــة مـــني
طال ليلـــي علـــى الليـــالي الطـــوال

وأخذت أتندم لا على شيء في حياتي سوى على تركي وطـــني رغم امتلاكي لسبب قاهر دفعني إلى ما فعلت، وكم استغبيت نفسي التي سعت بكل السبل الممكنة نحو حتفها دون أن تعلم.

اعتدنا أن نشاهد في الأعمال الدرامية العربية والعالمية على حـــد سواء أن الإنسان وقبيل موته بلحظات يقوم بإغماض عينيه بـــبطء ثم يدخل في حالة استذكارٍ لماضيه، ومن خلال تجربتي الأليمة تبـــيّن لي صحة هذا الكلام، نعم إنه لا يُعرض في الدراما عبثًا، لقد رأيته يحدث معي بأم عينيّ المتجمدة! إذ شعرت يومها أنني أشاهد شريط حيـــاتي كاملاً كمالاً مُفزعًا لدرجة أنني شاهدت ما لم أعتقد أنني قادر علـــى تذكره قط.

في بادئ الأمر تذكرت أول كـــل شـــيء، أول صـــديق، أول مدرسة، أول عراك، أول نجاح، أول رسوب، أول زيارة سينما ومـــا حدث بعدها، أول خطبة وزواجي الأول والوحيد، وأول مولـــودة وأول مولود، أول وأول وأول، وبعدها بقليل أو بكثير لا أدري بدأت مشاهد حياتي تفور من ذاكرتي بشكلٍ عشوائيّ، فارت كأنها آمنـــت بعدم امتلاكها الوقت الكافي للظهور أمامي على التوالي.

فكنت تارة أشاهد مديرة المدرسة التي عملت فيها وهي تدعوني للتفكير في ما أنوي فعله بخصوص هجرتي إلى أوروبا، ثم أنتقل بشكل مفاجئ إلى أمي وهي تناولني آخر أساورها الذهب كي تســـاهم في كلفة سفري، ثم أنتقل إلى والدي الذي نصحني بالاستخارة، وبعـــد

ذلك انتقلت إلى مشاهد شجاراتي اليوميّة مع إخوتي وأخواتي عندما كنّا صغار، ومع جيراني أيام المراهقة، ووقتها شعرت بأن الوقت بات ضيقًا. نعم ذات الوقت الذي كان للتوّ يمرّ بطيئًا غدا ضيقًا إلى أبعد حد!

وبعدها بقليل دخلت في مرحلة جديدة، مرحلة التخيل، وأول ما تخيلت كان أمي وهي تدعوني للطعام الذي أحبه، ثم تخيلتها وهي حزينة على نهايتي المأساوية، وكم ندمت لكوني المسبب لحزنها القادم! كما تخيلت والدي وهو ينعزل عن العالم لحظة سماعه خبر موتي متجمدًا، ومن ثم أخذت أتخيل إخوتي وأخواتي وعوائلهم وهم يتحدثون حول أمر موتي والطريقة التي حدث بها.

ومع اكتفائي من ذاك المشهد أخذت أتخيل نفسي ممددًا داخل تابوتٍ أبيض مليء بالعنب، اقترب منه سبعة أقزام بدوا لطفاء للغاية، نعم كما تتخيلون! إنهم ذاتهم الأقزام السبعة في حكاية بياض الثلج رأيتهم أحياء بأم عينيّ المتجمدتين، اقتربوا من التابوت وحملوه برفق وأخذوا يسوقونه نحو ما بدا كقبر أو ما شابه. ورغم ذلك لم أفزع بل أخذت أنتظر قدوم مريم، صغيرتي التي تحب القطط التي أخبرتكم عنها، انتظرت قدومها لتمنحني قبلة الحياة فأنهض من الموت، ولكنها لم تأتِ، وهم لم يدفنوني وانتهى المشهد، وأخذت أندم وأندم وأندم، وفكرت من جديد في حياة الجميع من دوني، وتخيلت زوجتي التي باتت من كل بد أرملة، وأبنائي الذين بات يفصلهم عن يُتمِهم مجرد بضع دقائق! وتساءلت إن بدأت تشعر والدتي بتجمد ابنها كما شعرت بي عندما كنت أهوي في قبرص؟ ورغم ذلك لم ينتهِ المشهد!

وبالرغم من كل ما شاهدته وتخيلته، وبالرغم من العتم الشديد الذي اكتنفني كنت مع كل إغماضة لعيني أشاهد كل شيء، كل شيء بالمعنى الحرفي، وأثناء ذلك كنت أتندم على كل شيء خاطئ أو شبه خاطئ قمت بارتكابه، حتى أنني ندمت على كل اعتذار لم أتفوه به، وعلى كل اعتذار لم يكن لائقًا بالشكل المثالي!

ومن بعد نفاد مخزوني للندم بدأت مرحلة افتقاد الوقت اللازم لمسح أخطائي السابقة أو حتى مجرد تعديلها، تذكرت سلبيّاتي قبل إيجابيّاتي، وندمت على التسويف الذي اشتهرت فيه بين أهلي. للمعلومة، وهي من تجربتي الخاصة، لا يتذكر الإنسان الأشياء الجيدة قُبيلَ موته، وفي المقابل يتذكر السيئة، السيئة فقط! والصغيرة قبل الكَبيرة!

ومع مرور الوقت أكثر بدأت أشعر شعورًا بدا نهائيًّا بكوني خسرت معركتي مع البرد، وأنني بتّ أملك الأقل من القليل من الوقت، وأن أطرافي بدأت تتساقط أمام قسوة هجوم نقص الأكسجين، لذا أخذت أخاطب حرارة جسدي بالانسحاب لتأمين قلبي بما توفّر من الحرارة والأكسجين، وتمنيت!

تمنيت للمرة الأخيرة في حياتي أن أحصل على زاوية صغيرة أموت فيها وأنا أحافظ على نوعٍ ما من خصوصيّتي، نعم رضيت بنهايتي فوق صناديق العنب، ورضيت بتمدد جثتي المتجمدة فوق قطوفها، واشتهيت كل طعام البشر باستثناء العنب.. نعم العنب! وعلى الفور تذكرت مريم صغيرتي التي كانت تغني لي قبل نومها:

**عالروزانا عالروزانا كل الهنا فيها**
**شو عملت الروزانا الله يجازيها**
**يا رايحين لحلب حبـــي معاكم راح**
**يا محملين العنب تحت العنب تفاح**

وأخذت أتساءل إن كانت صغيرتي ستستبدل كلمات أغنيتـــها من بعد موتي لتصبح "يا رايحين لبريطانيـــا حبـــــي معـــاكم راح.. يا محملين العنب فوق العنب أبـــي مات!" أصابتني غصّـــة، كغصّـــة موت ربما، وربما أكثر، وندمت على عدم توديعي لصغيرتي التي كانت نائمة حين مغادرتي لعالمها، مريم صغيرتي التي تحب القطط. لم أمت، شعرت أنني كقطة من التي تحبها مريم، قطة بسبعة أرواح اســـتنفذت للتوّ الروح السادسة من أرواحها السبعة.

## الجزء الرابـع..

- خالتي، أتشتري البسكويت؟ (بائع البسكويت، برزانة).
- لا، شكرًا. (الخالة، بقهر!).

# الفصل الثامن

## مريم

اسمي عيسى، ولدت في سبعينيات القرن الماضي، إنسان عادي مثل باقي الناس، أقصد مثل معظمهم، ترعرعت كما يترعرعون، أقصد مثل معظمهم، ونضجت كما ينضجون، أقصد مثل معظمهم، ثم بيّتُّ النيّة للزواج كما يبيّتون، وهذه المرة أقصد مثلهم كلهم. ولذلك تبرّع أحد أصهرتي وبحث معي عن الفتاة التي تناسبني، وكان عمله في أحد المحال في سوق الحميدية يوفر له الوفرة للبحث.

وذات يوم أخبرني بأن فتاة ما زارت محله، وأنه شعر بكونها مناسبة لتكون زوجةً لي، وبشكل متسارع تواصلت أسرتي مع أسرتها وقمنا بزيارتهم في منزلهم زيارةً عائليّة، وكم وجدت الموقف محجلاً يومها! المختصر المفيد في الموضوع أنني شعرت بكونها مناسبة لي وشعر أهلها بكوني مناسبًا لها، ومع مرور بضعة أيام قرّرت العائلتان الخطبة واخترنا لها موعدًا وتحضّرنا له وكتبنا الدعوات ووزّعناها.

وفي اليوم السابق من يوم الخطبة المنتظر قمت بتوصية أحد محال الحلويّات على كميات أكثر من مجرد كافية من عدّة أصناف مما لديه بحيث تكون جاهزة لأستلمها في اليوم التالي، وبعدها توجهت لاستلام فستانٍ قامت مخطوبتي مع أختها باستئجاره منذ عدّة أيام،

وفور استلامي له توجهت إليها بغية تسليمه لها، ما زلت أذكر حتى هذه اللحظة كم خجلت أثناء مروري وفستان الخطبة يترنح فوق ساعديّ بين أهالي منطقة سكنها الذين اعتادوا التسامر أمام بيوتهم.

سلّمتها الفستان وجلست معها وأهلها قرابة ساعةٍ من الزمن، ثم استأذنت للانصراف لإكمال تحضيرات الحفل، وكان كل شيء يبدو على أكمل وجه، ولكنني في طريقي للعودة وبينما كنت أجلس في حافلة نقل صغيرة، وجدت أحد الركّاب ينظر إليّ نظرةً ما وكأنه ينتظرني. وبعد بضع دقائق بادر بالسؤال بصوت خافت: (الأخ عيسى؟) فهززت برأسي مجيبًا بالإيجاب وفور ذلك أقدم الراكب ودفع عني أجرة الحافلة، رفضت ذلك بشدّة ولكنه أصرّ وانتصر بإصراره، وأثناء الطريق بادر مجددًا بذات الصوت خافت وقال: (خطيبتك تحبني وأنا أحبها)!

كانت كلماته صادمة رغم قلّتها! لم أعرف ما أقوله، احتجت لبعض الوقت لأجيبه بتلعثم: (سأنتقم منك في حال تبيّن بطلان كلامك، أما في حال صحته فتكون قد خدمتني)، ثم هويت في قاع الحيرة وتساءلت عمّا عليّ فعله وانتابني شعورٌ غريب، شعورٌ ما جمع بين كوني مغفلاً وأحمق ومخدوعًا، كما شعرت بالاختناق لدرجة أنني لم أستطع متابعة الطريق فنزلت من الحافلة في أقرب مكان قابل للنزول، ومن سوء حظي كان المكان شبه خالٍ من البشر وكان أشبه ما يكون بحديقة، وكان فيه كافتيريا صغيرة أجريت منها اتصالاً ببيت مخطوبتي، وطلبت منها القدوم لمقابلتي حيث أنا، وأخذت أنتظرها، وأثناء ذلك اكتشفت نزول ذاك الشاب العاشق وبرفقته مجموعة من أصدقائه الذين لاحظت وجوههم معنا في ذات الحافلة، في الواقع لم

آبه له ولا لهم، إذ شغل بالي ما هو أعظم من ذلك، (أحقًا لمخطوبتي حبيب سواي!) تساءلت في نفسي مرارًا وتكرارًا.

قدمت مخطوبتي على عُجالة وكانت معها أختها الكبرى، وبشكل مباشر وبدون الحاجة لأيّة مقدمات سألتها عن قصة ذاك الشاب، لم تجب! وأجابت أختها بدلاً عنها بالنفي، وبرّرت تصرفه بمحاولة منع أختها الزواج من أحد غيره، وذلك بسبب رفض أهلها الموافقة عليه حين حاول خطبتها أكثر من مرة. ولكن مخطوبتي لم تتكلم ولا بأيّة كلمة، وفي المقابل وجدت في عينيها الكثير من الكلمات المبهمة التي لم أتَقَبّل ما خطر على ذهني من تفاسيرها.

وأثناء بحثي عن إجابة ما في عيونها هاجمني تسعة أشخاص، أقصد تسعة أنذال، لم أتمكن سوى من عدّهم أثناء اعتدائهم عليّ، حطّموني أو ما شابه، حاولت الدفاع عن نفسي ولكن من دون جدوى، وفي المقابل حاولت الفتاتان ذلك وبالطبع لم تستطيعا تقديم أيّة معونة، وبعد بضعة دقائق مهينة ومؤلمة احتاجها المعتدون لإنهاء حقدهم تركوني، تركوني ككوم حطبٍ بائسٍ ملقًى على الأرض، كوم حطبٍ أو ما شابه.

وبالرغم من أخذي لحقي لاحقًا عن طريق القانون سببت لي تلك الحادثة عقدة من الزواج برمّته، وشعرت بشكل مُلحّ بحاجة لمواساة نفسي، ولقناعتي بأن على الحر تعلّم فن مواساة نفسه، لم أجد سوى نسيان الزواج كشكل من أشكال مواساتي لها، وأخذت عهدًا على نفسي بحذفه من قاموس حياتي.

وبعد مرور ثلاث سنوات على تلك الحادثة تخللتها حكايتي مع قبرص، بدأ ينتابني شعور بضرورة نكثي لعهدي بعدم الزواج، وأظن

سبب ذلك زواج العديدين ممن هم حولي، ومع مرور الأيام، اليوم تلو اليوم، دشّن أهلي مرحلة جديدة في الزنّ بهذا الموضوع، خصوصًا لكوني على رأس عملي وتوفّر أحد المنازل في انتظاري، ليس منزلي بالطبع، كان منزل أخي الذي يسكن خارج البلاد.

وذات يوم أخبرتني أمي بما معناه أن لقراءة الحكمة الكامنة في حدث ما علينا الثقة بمُقَدّر حدوثه، تأثرت بقولها لدرجة أن قبلت بتكرار تجربتي، وشاءت الأقدار أن تقابلت أمي مع إحدى الفتيات وتسارعت الأحداث بيننا لمرحلة الخطوبة، وأثناء ذلك اكتشفنا مصادفةً أنّنا أقارب من الدرجة الرابعة، ما زلت أذكر كم استبشرت بهذه المصادفة! لم أكن أتخيل أنها قد تحمل في طيّاتها نوعًا من السوء.

وحدث أن تزوجنا وعشنا حياة طبيعية جميلة، حاولت زوجتي أثناءها إقناعي بعودتها إلى عملها الذي منعتها عنه رغم عشقها له، ولكن من دون جدوى، وصدقًا لا أدري حتى هذه اللحظة لم منعتها منه، و لم منعتها من العودة إليه! لعلّ السبب اختلاطي الدائم مع المعلمات اللواتي كانت كل أحاديثهنّ تقتصر على همومهنّ بخصوص أزواجهنّ وأطفالهنّ وأعمال منازلهنّ.

كما أنني لم أكن أرغب بفكرة وجود الأطفال في حياتي لمدة سنة أو سنتين على الأقل، وذلك من أجل التمتع بالحياة ضمن أخفض نطاق ماديّ ممكن، ولكن بعد فترة من زواجنا حملت أخت زوجتي وكانت مثلنا حديثة العهد بالزواج، وبولادتها تلك بدأت أحلام الأمومة تجتاح قلب زوجتي أيما اجتياح.

أنجبت أخت زوجتي ولدًا وأنجبنا نحن بنتًا أسميناها فاطمة، كنت في قمة سعادتي لكوني بتّ أبًا، وباتت الابتسامة التوقيع الدائم على

تقاسيم وجهي، كنت – وما زلت بالطبع – أعشق صغيرتي فاطمة حد الجنون، باتت محور حياتي الجديد، أو بالأحرى محور حياتي الأول، فقبل ولادتها لم أكن أشعر بوجود ما يدفعني للنهوض من النوم بلهفة، والذهاب للعمل بحزن، والعودة منه على جناح السرعة لأتابع ما استطيع من ساعات عمرها كما أتابع أجمل ما قد يذاع بالتلفاز.

وفي مقابل ذلك وعلى الضفة الثانية من سعادتي كانت تهنئات الأهل والأصدقاء والجيران والزملاء يقتصر معظمها على فكرة دعاء الله لي كي يمنحني طفلاً آخر، شريطة أن يكون ذكرًا. وفي حالات أقل كان يُستبدل الدعاء بدعوة من أجل الشدّ من أزري لمتابعة الإنجاب! وكأنني في سباق تسلح بالأبناء وخصوصًا "الذكور".

وعلى قدر محبتي لفاطمة وعلى قدر سذاجة تفكير مجتمعي لم يعنِ لي شيء من حطام الدنيا ما دامت فاطمة بين يديّ، وقررت عدم الإنجاب حتى تكبر هي وتقرر بذاتها إن كانت ترغب في إخوة لها أم لا.

أذكر أن فاطمة ولدت في أول أيام عيد الفطر المبارك، وبعد فترة شعرت بكونها أقصر من مجرد قصيرة فاجأتني زوجتي وأخبرتني بأنها حبلى من جديد! وولد أحمد في أول أيام عيد الفطر التالي، كان بين فاطمة وأحمد سنة هجرية بالتمام والكمال! واتفقت وزوجتي على الاكتفاء بفاطمة وأحمد، وأخذنا عهدًا جديدًا على أنفسنا بعدم الإنجاب. وبعد مرور ثلاث سنوات سريعة سرعة البرق قدمت زوجتي نحوي ذات يوم لتخبرني مجددًا بكونها حبلى!

كان صغيري أحمد لا يزال في الثالثة من عمره، جـــنّ جنـــوني ورفضت الانصياع للأمر الواقع وقررت إجهاض الحمل الجديـــد، لم أكن لأصدق أنني وبالرغم من قراري بعدم الإنجاب أُنجـــب ثلاثـــة أطفال! ترى كم كنت لأنجب في حال رغبتي بذلك؟ أذكر أن أمـــي أجابتني ذات مرة قائلة: (قد لا يكتب الله لك شيئًا).

فشل كثيرون بإقناعي بالعدول عن أمر الإجهـــاض خصوصًـــا لكوني قد سمعت أحد الفتاوي فحواها أنه يجوز الإجهاض ما دام عمر الجنين أقل من أربعين يومًا، فأقنعت نفسي بيقين صحة تلك الفتـــوى دون أدنى تحقق منها، وأخذت أبحث عن طبيبـــة تقبـــل إجراءهـــا، وبصعوبة بالغة وجدتها ولكنها طلبت مبلغًا كبيرًا لا أملكه.

تدبرت أمري وجمعت المبلغ المطلوب، وكانت زوجتي لا تزال تعارض أمر الإجهاض بشدة ولكنها مع إصراري الكامل يئســـت وشبه استسلمت، وفي الليلة التي سبقت يوم العملية رغبت زوجـــتي بالمبيت في منزل أهلها، فأيدتها لذلك آملاً بأن تتماسك أكثر مما هي عليه.

لذا تركت مدرستي التي أعمل فيها صباح اليوم التالي، وانطلقت حيث زوجتي لنذهب سويًّا للمستشفى، وقبيل خروجها من منـــزل أهلها أخبرتني بأن صديقة والدتها تريدني في أمر ما، كانـــت تلـــك الصديقة ذات سمعة حسنة طيبة، ومعروفة بأخلاقها وتديّنها، فصعدت إلى منزلها وكانت تسكن في الطابق فوق منزل أهل زوجتي وقرعـــت جرس باب منزلها، فتحت الصديقة الباب فتحة صـــغيرة وتـــوارت خلفه، ولشدة حيائها كلّمتني وهي متواريّة وسألتني بطمأنينـــة عـــن سبب رغبتي بإنزال الجنين.

- الوضع المادي. (كان جوابي واضحًا ولكنه غير مقنع البتّة).
- أتؤمن بالله أم لا؟ (سألت مجددًا).
- بالطبع! (أجبتها).
- ألا تؤمن بكون الله هو من سيرزقهم وبكونك مجرد وسيط لا أقل ولا أكثر؟ (تابعت بطمأنينتها).

أعترف، أخجلتني تلك المرأة بأسلوبها وشعرت بأنني صغير للغاية وجاهل حتى الثمالة، فشكرتها على مداخلتها في حياتي وزوجتي وطفلي الذي لم يولد وقتها بعد، وطمأنتها وطمأنت نفسي بأنني لن أتخلى عن طفلي القادم مهما حدث، وعدت إلى زوجتي وأعلمتها بقراري وأفرَحتُ منها رَحِمَها قبل أن أُفرِح منها قلبها، وقمت بإعادة المال الذي جمعته لأصحابه، واستمر الحمل بفضل الله وكرمه رغم مصاعب الحمل الشديدة التي أصابت زوجتي هذه المرة.

ومع مرور الأشهر ازداد من تعلّقي بحمل زوجتي الثالث خصوصًا لما احتاجته من العديد من الفحوصات أثنائه، وكان من ضمن نتائج أحد الفحوصات أن تبيّن كون زوجتي حاملة لما يسمى صفة الثلاسيميا، وفور معرفتي لذلك أصابتني غصّة قلق إذ تذكرت تزويري لتحليل الثلاسيميا الذي طُلِب مني قُبيل الزواج.

ونتيجةً لحمل زوجتي صفة الثلاسيميا أمرني الطبيب بإجراء الفحص على الفور، وسألني عن أطفالي فاطمة وأحمد من باب الاطمئنان، وأذكر أنه قال لنا: (يا بني، أسأل الله أن يسلم لكم طفلكم القادم، ومهما حدث لا تنجبوا بعده! فالمسؤولية مسؤوليتكما

أمام من تنجبون وقبل ذلك أمام الله). ومنذ ذاك اليوم دخل مـــرض الثلاسيميا حياتي وبدأت أبحث عنه وأتعرف إليه.

يُدعى هذا المرض بالثلاسيميا، وفي رواية أخرى فقر دم حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو مرض وراثي، تظهر آثاره على كريات الدم الحمراء ويجعلها غير قادرة على القيام بوظائفها مسببًا فقر الـــدم المزمن، وتظهر آثاره على الأطفال في مراحل أعمارهم المبكرة في حال حصلوا على المورّثات المعتلّة من جهتيّ الأب والأم معًا.

الجميل في الأمر أن مولودنا الثالث كان سليمًا معافى، وكانـــت فتاة أسميناها أصالة، كانت أصالة جميلة جدًا – ولا تزال – والأهم من ذلك أنها كانت سليمة من المرض، وفور اطمئناننا علـــى ســـلامتها جددنا عهدنا حازمين بعدم الإنجاب مرة أخرى.

كنت وقتها أسكن في أحد الأحياء الشعبية، ولذلك كنت شديد الخوف على أبنائي مما فيه، وبسبب ذلك كنـــت أمنـــع خـــروجهم وحدهم من المنزل، وفي المقابل كان صغيري أحمد يطالبني يوميًا بأخٍ "ذكر" ليلعب معه، وبالرغم من قصر وقتي في المنزل نتيجة عملـــي في المدرسة صباحًا وفي معمل للزجاج مساءً كنت أحاول جاهدًا اللعب معه على الدوام دون أدنى اكتفاء.

وعلى هذه الحال مرت الأيام علينا سريعًا إلى أن عادت زوجتي لعادتها القديمة وأخبرتني من جديد بأنها حبلى! ويومها جنّ جنـــوني بحق! انتابني مزيج من المشاعر السيئة؛ غضب، ندم، فـــزع، حقـــد. كانت مشاعر لا توصف وأخذت أترقب صحة المولود القادم، وشتان ما بين الانتظار والترقب! عشنا أيامًا متشحة بالسواد طـــوال تســـعة أشهر! بالمناسبة حتى أصالة وُلدت في أول أيام عيد الفطر المبارك!

ولدت مريم في شهر رمضان على خلاف بسيط بموعد ولادة إخوتها، وبالرغم من علمي بأن تكرار موعد الولادة للمرة الرابعة شبه مستحيل شعرت أن لاختلافها عن يوم مولد إخوتها إشارةً ما اجتاحت قلبي مثيرة قلقي وريبتي.

كانت مريم طفلة طبيعية، كسائر الأطفال، كسائر إخوتها، ولكنها بعد مرور شهر واحد من ولادتها بدأ لونها بالاصفرار، ظننّاه مجرد اليرقان، أقصد الحالة الشائعة للأطفال حديثي الولادة، لذا كنّا نعرضها للضوء كعلاج كما أشيع في مجتمعنا، ولكن للأسف كان ذلك من دون جدوى!

وذات يوم قدم إلينا أحد الزوار ونبّهنا بحدّة إلى لون صغيرتنا المائل للصفرة، كنّا بالطبع على معرفة بذلك ولكننا كنّا نقنع أنفسنا بأنه مجرد اليرقان لا أكثر ولا أقل، ولكن من تنبيه ذاك الزائر وجدنا أنفسنا أمام حل واحد ألا وهو مراجعة الطبيب، ذهبنا إلى طبيب أطفال وقام بتحويلنا مباشرة للمستشفى، ولم نتأخر عن ذلك وذهبنا مساءً للمستشفى لنجد فيه أحد الأطباء المقيمين الذي أفتى لنا على الفور بإصابة صغيرتنا بسرطان الدم!

صدمتني قسوته، قالها بدون مبالاة، كرهته، كرهت أهله الذين أنجبوه، والجامعة التي أعطته شهادته والمستشفى الذي وظّفه وتمنيت إصابته بدلاً من صغيرتي، وتساءلت في نفسي إن كان المرض حقًا ظاهرًا لدرجة عدم طلبه لأيّة تحاليل! وفور خروجي من عنده أجريت اتصالاً بأخي الذي يعمل في مجال الصيدلة، فأجابني ببساطة بكون ذاك الطبيب أحمق من كل بد، فالسرطان – حسب قول أخي – لا يصح ثبوته بدون فحوصات تأخذ وقتها، وما كان مني

سوى أن تعلّقت بكلامه كأمل.

وبعد عدة مشاورات بين الطبيب المقيم وزملائه اتفقوا جميعهم أن لا بد للصغيرة من أخذ وحدة دم سواء أكان ذاك الطبيب الفجّ عالمًا بما يقوله أم لا، لم أكن لأتخيل قط أنها ستكون المرة الأولى التي تأخذ فيها صغيرتي وحدة دم ضمن سلسلة من المرات التي بدا لي أنها لن تنتهي لسنوات مديدة!

# الفصل التاسع

## الثلاسيميا

عدنا ليلتها إلى المنزل وهمٌّ بالغٌ جليّ يرافقنا، وأمضينا ليلتنا كلّها ما بين الندم على تمام الحمل ودعائنا لله من أجل إنقاذنا من الموقف السيء الذي أوقعنا أنفسنا وصغيرتنا فيه، حتى هذه اللحظة لا أنا ولا زوجتي نستوعب كيفية حدوث ذاك الحمل رغم الاحتياطات الشديدة التي اتخذناها خشية حدوثه. ومنذ تلك الليلة بدأنا نفكر بما علينا فعله، وبدايةً ومنذ اليوم الأول وجدت نفسي أداوم السؤال عن أفضل الأطباء المتخصصين في مجال الدم.

وكان أول طبيب زرناه طبيب أطفال عُرف بشهرةٍ تفوق شهرة الممثلات في منطقتنا، أعلمناه بقصتنا وبدوره طلب منّا إجراء تحليل لمريم يدعى تحليل الرحلان، ولاحقًا مع قراءة نتائجه أعلمنا الطبيب بأن صغيرتنا مصابة بالثلاسيميا الكبرى! كانت معلوماتنا عن هذا المرض شحيحة وضحلة ومشوشة، كل ما كنت أعرفه عنه أن المصاب به يقوم بعمليات نقل دم بين الفينة والأخرى ولا شيء غير ذلك.

وليلتها عدنا للمنزل كما في المرة السابقة يرافقنا ذات الهمّ، ولكن مع شعور أقوى هذه المرة لرسوخه في قلوبنا، كم تساءلت صارخًا ليلتها: (أب يعرف كونه قد ينجب أطفالاً مرضى لماذا ينجبهم!).

وفي صباح اليوم التالي ومع انتشار تشخيص مُصاب مريم بين أفراد العائلة، وحتى قُبَيلَ إبداء أيّة مظاهر للتعاطف مع الصغيرة، انتاب الجميع فزع شديد أعقبه إجراء كل من سمع الخبر منهم فحص الثلاسيميا، خصوصًا لمن كان شريك حياته من أقاربه "ولو من بعيد" كما حالي مع زوجتي، هادفين لمعرفة ماهيّة احتمال إنجابهم لأطفال مصابين بذات المرض.

ومن جهتي غاصت بي ردّة فعلهم في وحل الهمّ أكثر وأكثر، وأُغرقتُ بهواجس كثيرة وبوساوس مرعبة، وقمت بكتابة العشرات من السيناريوهات الممكن حدوثها، وحتى غير الممكن حدوثها قمت بكتابتها. وكم آمنت بجمال النهايات السعيدة! وكم فزعت من فظاعة النهايات "غير السعيدة كما يجب"!

ومع ذلك تابعت البحث عن أفضل أطباء الدم في كافة أنحاء الوطن، وهكذا دواليك إلى أن ساقتنا خبرات المجتمع إلى من قيل أنه أكثر الأطباء شهرة على مستوى العاصمة وما حولها، كانت عيادته في مكان مرموق جدًا وتكلفة مقابلته جد مرتفعة، وهو بالطبع خرّيج إحدى الدول الأوروبية العريقة.

انتظرنا في عيادته ثلاث ساعات أو ما شابه حتى جاء دورنا ودخلنا عليه، وقام بالنظر إلى التحاليل ببرود قاتل، وقام على ما بدا وكأنه بعجالة فحص الصغيرة، وأعقب ذلك بهدوء تام قائلاً بما مفاده أن الصغيرة مصابة بالثلاسيميا وأن عليها إجراء عملية نقل دم بشكل دوري. وبذلك انتهى دورنا وانتقل للمريض التالي!

ومع ذلك لم أستسلم وحاولت جاهدًا تغيير نتيجة تحاليل مريم بانتقالي من طبيب إلى آخر بالرغم من يقيني من نتيجة محاولاتي، كنت

أحلم ليلاً أنه في المرة القادمة التي أُبدل فيها الطبيب يخبرني بأن ابنتي سليمة معافاة، وعندما أستيقظ كنت أُنَفّذُ الجزء المتعلق بي من حلمي على أملٍ بأن يُنفذ الطبيب الجديد الجزء المتعلق به من الحلم، ولكن من دون جدوى إذ كانت النتيجة واحدة "الثلاسيميا الكبرى".

وعلى مدار الأيام تبدّلت شخصيتي وتحولت من إنسان هادئ لآخر شديد الغضب، كنت كثير الصراخ في المدرسة، على الجميع؛ الطلاب، المستخدمين، الزملاء، وكان الجميع يسألونني عمّا حدث لي وغيّر من طبيعتي، ولكنني في المقابل لم أكن أجب أحدًا عمّا في قلبي. كما إنني أعترف آسفًا أنني أغفلت دوري كأب لأبنائي الثلاثة فاطمة وأحمد وأصالة، وحدها مريم من مارست الأبوة بحق من أجلها، و لم أتطرق لأبنائي حول مرض أختهم سوى في محاولات لإخفائه عنهم، لا خوفًا على شعورهم بل خوفًا على شعورها هي، كي لا تُنادى بالمريضة! ولكنهم بالطبع عرفوا، فالشمس لا تُغطى بالغربال فما بالكم بأن تغطى بمجرد الوهم!

وذات يوم سألتني مديرة المدرسة ذات السؤال: (لِمَ أنت غاضب)، في الواقع لم أتمكن من الإعراض عن إجابتها، لا أدري ألكونها المديرة أم لكونها امرأة أم أنني كنت قد وصلت لحاجة ملحّة بتسريب ضغط الحمل الساقط على أكتافي، أظنني كنت بحاجة للبوح بألمي، فالبوح علاج نافذ، إنه الزفير الممهد للقادم من الألم. لذا أدليت لها بقصتي، بنبرة صوت رجل مقهور، رجل يخجل من البكاء أمام نفسه فكيف أمام امرأة! وأي امرأة؟ مديرة مسؤولة عنه بشكل أو بآخر! وهي بدورها سمعت قصتي بهدوء أُم شهيد، وقَلّبَت بذهنها على المشورة المناسبة لي برزانة رجل دين، ثم أعطتني العلاج الأنجع

كطبيب خبير، وكان علاجها لي من وجهة نظرها زيارة ابن أخيها، وكان طبيبًا ورئيس أحد أقسام مستشفى كبير في دمشق، كان قد أتم دراسته في أوروبا هو الآخر، هاتَفته لي على الفور وأطلقتني حالاً للذهاب لمقابلته.

انطلقت كعدّاء، ومن فرط الأمل شعرت أنني أول الواصلين إليه، تحسست شريط النهاية ينقطع حول خصري أمام مكتبه، وتخيلت هيئة كأس العلاج بين يديّ وأنا ألوّح به فَرحًا أمام صغيرتي. بضع دقائق كانت كفيلة لأجلس أمام ذاك الطبيب، وللمعلومة لمثل ذاك الطبيب يحتاج المرء منّا "نحن عامة الشعب" للأيام وقد تصل للشهور لمجرد مقابلته لا الجلوس أمامه، قابلني الطبيب بابتسامة عزيزة ثم نهض وأغلق الباب من خلفي، فاعتذرت عن عدم إغلاقه، ابتسم لي وجلس قبالتي، واستلم كافة التقارير من بين يديّ المتصلبتين وأخذ يتفحصها.

وبعد تأنٍّ بدا لي منذ الوهلة الأولى مصطنعًا، أكد لي الطبيب ما هو مؤكد، وهو إصابة مريم بالثلاسيميا، وشرح لي المرض كما يشرح عالمٌ لطفل أبله، ثم ربّت على كتفي يعزيني وأتبع عزاءه بجملتين صفعتا وجهي يمنة ويسارًا وكأنما بيديّ دب لا إنسان: (لا تسمح لأحد بأن يخدعك بخصوص أي علاج، لا يوجد لابنتك أي علاج)، نظرت له بعينيّ طفل دامعتين آملاً بتغييره لأقواله، ولكنه في المقابل لم يكتفِ وأضاف: (عليك التكيّف مع المرض).

ولحظتها بكيت، بكيت كما لم أبكِ قط، بكيت كأرملة، كيتيم أُم وأب ووطن، كبريء حُكم لتوّه بالإعدام، بكيت كمجرم جرمه أن أنجب! كمجرم جرمه أن زوّر فحوصات ما قبل الزواج! بكيت كأب مكلوم بفلذة كبده، نعم بكيت.

كنت شديد الوثوق بذاك الطبيب بالذات، فالقدر من ساقه أمامي لا بحثي الخائب عن الفرج، وعلى قدر ثقتي جاء ألمي، ألم الصد، ألم خضّة الاستفاقة، ألم الإيقاظ من الحلم. انهرت تمامًا، كالدومينو بلمح البصر، فقدت القدرة على صف الكلمات، بعثرت بعضها في وجه الطبيب بشكل غير مفهوم وتابعت البكاء. أما الطبيب فأخذ يعمل على قدر إنسانيته لتهدئتي، وأكد لي ما أعرفه مسبقًا بكون المجتمع يحتوي على العديد من المصابين بهذا المرض وأنني لست أول والد مصاب ولا آخرهم، كما طالبني بضرورة إيماني بالقدر شرّه قبل خيره.

وبالرغم من ذلك لم أستسلم، وباتت عادتي الجديدة البحث عن أطباء جدد متخصصين بالدم، أظن كلمة الهوس أكثر دقة وليست العادة، أذكر أنه في غضون أحد الأسابيع زرت ثلاثة أطباء أكدوا لي المؤكد، و لم أكتفِ بذلك فأخذت أبحث أكثر عن المرض والمرضى، وأخذت أراقب أشكال المصابين فيه وأصنفهم حسب الفئات العمرية. كنت كلما واجهت أحد المرضى أفزع – خصوصًا في أعمار ما بين الثالثة والخامسة – لا لأشكالهم معاذ الله بل لتخيلي شكل مريم وهي تعاني معاناتهم. كان قلبي يبكي مستقبل صغيرتي وعقلي يواسيه برفض حالته رفضًا حازمًا. (أستعاني مريم مثلهم ذات يوم؟). كم تساءلت!

للمعلومة مرض الثلاسيميا مرض مُتشعب بشكل كبير، تكون بشرة مصابي هذا المرض اللعين مائلة للصفرة، وعيونهم غائرة على عكس أسنانهم البارزة، وترى جباههم عريضة، ومفاصلهم أكثر ضخامة، لاحقًا فهمت أن تأثير هذه الصفات يتناسب طرديًا مع نسبة

المرض، أحمد الله أن سمات المرضى لم تظهر على ابنتي قط، وأحمد الله أن أحدًا لم ينتابه الشك بمرضها من مجرّد هيئتها.

ومرت ثلاثة أشهر على نفس الحال ونحن نقوم بنقل الدم لمريم مرة كل شهر، وفي الشهر الثالث وبعدما نقلوا لها الدم أعلموني في المستشفى بأنهم لن يستقبلونا عندهم في المرة القادمة، وأن علينا تسجيلها في مركز الثلاسيميا، وهو مركز متخصص لنقل الدم وإعطاء الأدوية اللازمة للتخلص من الحديد المتراكم جراء نقل الدم المتكرر.

ومن حسن حظي كان المركز قريبًا من المدرسة التي أعمل بها، لذا انطلقت في اليوم التالي وزرت المركز؛ وكان المركز عبارة عن مجموعة غرف ومكان واسع للانتظار، ويزوره يوميًا ما بين الخمسين والستين مصاب. طلبوا مني ما يسمى بتحويلة من طبيب مختص يعطي فيها الحالة الكاملة لمريم، كما طلبوا حضور "المريضة" شخصيًا مع أوراقها الثبوتية، وكم آلمتني لحظتها كلمة "المريضة" تلك! أذكر أن رئيس المركز كان قاسيًا بعض الشيء، وقد لا يُلام على ذلك بسبب انعدام التزام المرضى وذويهم بتعليمات المستشفى.

وفي اليوم التالي قمنا بإجراءات التسجيل وأعطونا دفترًا صغيرًا مع دواء خاص للأطفال الرضّع، وبتنا نزور المركز شهريًا، نصل في الصباح الباكر لنقوم بتسجيل حضورنا، ثم يتم فحص مريم بأخذ عينة من دمها ويتأكدون من أمر استحقاقها للدم من عدمه، وفي حال استحقاقها للدم ننتظر وصول وحدات الدم من بنك الدم الرئيسي. ساعة أو ساعتين أو ثلاث أو ما شابه، ومع وصول الوحدات يتم إجراء اختبار تجانس بين دم مريم والوحدة المُتَبَرَع بها، وفي حال

التجانس تنتقل مريم لمرحلة تسمى فتح الوريد، وكانت تقوم بها أربع ممرضات، والهدف من هذه العملية هي تجهيز الوريد لاستقبال وحدة الدم، وأخيرًا كنّا نستلم وحدة الدم وتقوم الممرضة بتعليقها بجانب مريم وأنتظر معها قرابة الثلاث ساعات.

كانت هذه حالنا لعدة سنوات، وفي كل زيارة للمركز كنّا نسمع العجيب ونرى الأعجب، أذكر أنه ذات يوم سمعت أن الابتعاد عن الأغذية الغنيّة بالحديد مفيد لمصابي الثلاسيميا، وفور سماعي لذلك ابتعدت عن كل ما يحتوي الحديد، حرمت صغيرتي ونفسي وباقي الأسرة منها. وفي يوم آخر سمعت عن عمليات بتر الطحال بسبب تراكم الحديد، نعم البتر!

في الواقع كلمة البتر كلمة مُفزعة، فكرة شديدة الإيلام، كلمة لا تشعر بها إلاّ حين ترِفُّ أمام عينيك وحول أذنيك. وكثيرًا ما كنت أتساءل أيامها أن كيف هي إذن فكرة التوافد للقبر على مراحل؟ ألا إنها فكرة مرعبة بحق، في الواقع إن الرقود في القبر ككل ومرةً واحدة نعمة لا يُقدّر ثمنها إلاّ من فقد أجزاءً من جسده. وتحسبًا لكلمة البتر الكريهة وخوفًا من اقترابها من صغيرتي، داومت على إجراء الفحوصات لطحالها بشكل دوريّ.

وذات يوم سمعت في مركز الثلاسيميا والد أحد المرضى وهو يشير إلى ابنه الذي كان يلهو وقتها بعيدًا عنه، ليَدُلّ بذلك إحدى الممرضات التي تناديه عليه، وكان يقول من باب تدعيم الإشارة إلى ابنه: (ذاك الطفل ذو الشعر الفاتح)، ولكن الممرضة لم تتمكن من تحديد أيّ الفتيان هو إلاّ عندما سألت الوالد باستغراب إن كان يقصد الطفل صاحب الشعر البنيّ! فأجابها الوالد بالإيجاب. وكان مما أثار

انتباهي لتلك الحادثة أن الفتى كان بالفعل ذا شعر فاتح، ولكن لـــيس بالنسبة لممرضة شقراء!

وكم أسعدني ذاك الموقف وكم أحزنني في ذات الوقـــت، إذ عندما أسقطته على مرض صغيرتي كما أقوم بإسقاط كل المواقف، تبين لي أنه وبالرغم من التباين الكبير بين حالات المرضى الموجـــودة في مركز الثلاسيميا، تمتاز جميعها بامتلاكها لتأثير متكـــافئ علـــى المصاب وذويه، فكل مصاب بالمرض يرى مِن مَن هم حولـــه مـــن أصح منه ومن أكثر مرضًا، فيفرح لنفسه تارةً ويســـتاء لهـــا تـــارةً أخرى.

ومع مرور السنوات ومساء كل يوم من أيامها كنت أجـــالس نفسي أفكر في مريم، أن لِمَ أنجبناها! أفكار سخيفة خطرت على بالي، وأحلام بالية ارتسمت في مخيلتي، كنت وبالرغم من مرور السنوات ما أزال أرفض في قرارة نفسي فكرة كونها مريضة، كنت أشفق عليهـــا طوال الليالي لأنتظر استفاقتها باكورة كل صباح كي أعـــدها بحيـــاة جميلة زاهرة تنتظرها في المستقبل.

أتعلمون بات أمر شفاء صغيرتي من الثلاسيميا هاجسي الوحيد، الشغف الذي أصبو إليه، الموضوع الأول الذي لا ثاني لـــه والـــذي يسرح ذهني فيه كلما سنحت له فرصة بذلك. وحتى في حال يقظتي كنت أتلمّس الثواني الفارغة لأنساق بذهني للسرحان فيه من جديد، كنت في كل مرةٍ يسرح فيها ذهني أبني أحلام الشفاء عاليًا واستمر في البناء والبناء حتى تنسفها عودتي لليقظة. ولكنني بالرغم من ذلـــك لم أكن آبه بذلك فأُعيد في المرة التالية بناء الأحلام ذاتها مـــن الصـــفر، وأحيانًا ومن باب التنويع في الأمر كنت أُطوّر تسلسل الشفاء وأحيانًا

أخرى أقوم باختصاره، وأحيانًا أضيف بعض التضحيات، وأحيانًا أدفع المزيد من المال الذي لا أملكه.

ومع مرور السنوات لاحظت على نفسي كما لاحظ الجميع كيف أضحى حديثي عن شفاء مريم أولوية أحاديثي مع الآخرين، لدرجة أنني كنت أترقب وأحيانًا أتوّهم ظهور الشفاء بين أحاديثي معهم، كمعلومة أو مشورة أو فكرة أو ما شابه.

كما أنني بتّ أجد مريم ومرضها في كل فيلمٍ أو مسلسلٍ تلفزيونيّ أشاهده، فإن كان الفيلم يتمحور حول استيقاظ البطل ليجد كل أحداث الفيلم حلمًا تخّيلت أنني مثله ومرض صغيرتي مجرد حلم لا أكثر. وفي حال تمحور المسلسل حول ظهور بطل مُنقذ تخّيلت أنني مثله وأن البطل سيظهر في الحلقة القادمة أمامي لينقذ صغيرتي. كم كنت أعشق النهايات السعيدة، وكم كنت أكره وأشمئز من كل ما يصيب النهايات من سوء. وبالرغم من صمودي الدائم وحلمي المستمر بالانتصار على المرض يومًا ما كنت أحيانًا أشعر بالتعب، مجرد التعب لا الاستسلام.

وذات يوم سمعنا في مركز الثلاسيميا عن نجاح نوع معين من العمليات محصلتها الشفاء التام من الثلاسيميا، وأنه في حال أجراها المصاب يغدو إنسانًا طبيعيًا، وفي يوم آخر سمعت أن هناك من يقوم بتمويل مثل هذه العمليات المكلفة، وهو متبرع من مواطني المملكة العربية السعودية، كما سمعت أن التقديم لطلب مساعدته يتم عن طريق مكتبه الخاص في بلاده.

وبالرغم من كون الخبر أقل من حقيقة يُعتمد عليها، وبالرغم من كونه أكثر من مجرد إشاعة تُهمل فور سماعها، قلت في نفسي

بأن عليّ التجربة، فكما تعلمون إن في رفض التجربة صورة من صور العبودية للواقع، وأنا لست بعَبْدٍ للواقع لذا قررت خوض تلك التجربة متسلحًا بشعاري القائل "دائمًا ما تَستَحق أمورنا الخاصة المحاولة".

كنت أمتلك عربة ابتعتها منذ فترة وجيزة، قمت فورًا ببيعها وتركت أولادي الثلاثة عند جدهم وسافرت رفقة زوجتي ومريم برًا إلى المملكة العربية السعودية عبر الأردن، والسفر إلى تلك الدولة الشقيقة يكاد يكون شبه مستحيل سوى عن طريق أداء العمرة، لذا سلكنا سبيل العمرة وسافرنا إلى مدينة مكة المكرمة فأتممنا مناسك العمرة، وكانت أول الأيام في حياتي التي أشعر فيها بالسعادة الروحية. أذكر كنّا وقتها في أول أيام شهر رمضان المبارك. وبعد انتهائنا من مناسك العمرة انتقلنا لمدينة جدة حيث مكتب ذاك المتبرع وحاولت جاهدًا الوصول إلى مكتبه ولكن من دون جدوى، وباءت محاولتي بالفشل وتقهقرنا خائبين حتى وصلنا الوطن.

وتابعت عجلة الأيام دورانها وتفكيري بأقرب الطرق لإجراء العملية لصغيرتي لا يفارقني، وكنت كثيرًا ما أسمع في مركز الثلاسيميا عن العديد من قصص العمليات الناجحة في كلٍّ من الأردن ومصر، حتى إيطاليا سمعنا عن سير العمليات فيها، ولكنها جميعها امتازت بكونها مُكلفة للغاية، وبالرغم من ذلك لم أفقد أملي وحافظت على متانة حلمي باقتراب موعد إجراء العملية لصغيرتي.

ومع مرور السنوات بدأت تظهر في شخصية مريم جوانب جميلة كثيرة زادت من تعلّقي فيها، كانت فتاة مُبهجة بحق، تبثّ على الدوام السعادة بين أخوتها مما ساهم في حب زوجتي لها حبّ الأم لوحيدها

دون أدنى اكتراث لمرضها، بالفعل كانت زوجتي أقوى مني بإخفاء مشاعرها.

أما أنا فبدلاً من أن تسعدني شخصية صغيرتي المرحة زاد ذلك من صعوبة تقبلي لمرضها، كنت دائم الشعور بكونها مظلومة وبأنني أنا ظالمها، فزادت ساعات أرقي وأنا أفكر فيها، ووصل بي الأمر لدرجة أنني كنت أخاف عليها طوال اليوم، ومساءً أخشى عليها من اليوم التالي.

وكان مما يخفف عني ما أنا فيه أنه على قدر ما كانت أيام نقل الدم لمريم صعبة على نفسي وجدتها الأسعد بالنسبة إليها، إذ كانت ترافقني للمدسة حيث أعمل، وتجلس على مكتبي لتصرخ والسعادة تملؤ محياها قائلةً (أبي المدير) رغم أنني لست كذلك، ومع بداية فعاليّات اليوم المدرسي يتوافد الجميع إلى مكتبي لمداعبتها وملاعبتها، نعم الجميع؛ الزملاء والإداريون على حد سواء، وكانت أحب الألعاب إلى قلبها الرسم على الأوراق الصغيرة الملونة.

وكنت في تلك الفترة قد بدأت العمل في أحد معامل الزجاج كعمل إضافيّ بعد انتهائي من العمل في المدرسة، كان عملي الجديد مختصًا بالطباعة والرسم على الزجاج، وجدته جدّ ممتع وأشعرني بأثر نكهة الإبداع، وكانت مريم تتمنى مرافقتي إلى المعمل كما كانت ترافقني إلى المدرسة لكثرة حديثي معها حول ما أفعله فيه وأصنع وأبدع.

وفي أحد أيام شهر رمضان المبارك قام صاحب المعمل بدعوتنا جميعًا مع عوائلنا للإفطار داخل المعمل، وكانت تلك الزيارة الحلم التي حظيت بها صغيرتي، وعندما وجدتني في الزيّ الخاص بالعمل

تضاعفت سعادتها ووعدتني من قلبها الكبير الكـــامن في جســـدها الصغير أنها ستعمل معي في ذات المكان عندما تكبر. وحدها أحلامها من استطاعت إسعادي، وهي وحدها من داومت على تثبيت عزيمتي الساعية لتوفير الإمكانية لإجراء العملية التي ســـتنهي قصـــتها مـــع الثلاسيميا. نعم كنت ما أزال أثق بشفائها.

وذات مرة ذهبنا في زيارة عائلية إلى أحد الأصدقاء في منطقـــة ريفية، أهداها صديقي دبًا قطنيًا أبيض ذا عينين حمراوين، وقعت مريم في عشق ذاك الدب وبات رفيقها في عمليات نقل الدم، وكانت كثيرًا ما تمثل لنا أنه هو المريض وأنه بحاجةٍ لدورٍ من أجل نقل الدم إليه.

وبعدها بفترة وجيزة اندلعت الأزمة في وطـــني، وفي غضـــون شهرين أو ما شابه توقف معمل الزجاج عن العمل وتوقفـــت معـــه وانخفض دخلنا الماديّ بنسبة كبيرة. وبسبب ذلك بدأنا نقتصـــد في مصاريفنا وخففنا من معدل زياراتنا للأطباء، وأخذت أبحث مطـــولاً عن عمل آخر إلى أن وجدت فرصةً مؤقتةً للعمل في توزيع مواد البناء مع رجل يدعى أمجد، لم أكن لأعلم وقتها أن الله أوجد أمجد أمـــامي لسبب ما.

وفي أحد الأيام في بدايات العام 2012م، كنت وعائلتي في زيارة لأهلٍ زوجتي وتأخرنا في العودة إلى منزلنا، وعندما عدنا كان الوقت مساءً، وكان منزلنا في مكانٍ شعبيّ، في الطابق الرابع مـــن إحـــدى البنايات المتلاصقة. وأوصلتنا عربة أجرة إلى البناية التي نسكنها كمـــا العادة، ولكنني على الفور شعرت بوجود خطب ما.

كانت الشوارع خالية من الجميع، وجميع الأنوار مطفأة ســـواء البيوت أو المحال التجارية أو حتى الطرقات، نزلنا من عربة الأجرة التي

رحلت على الفور، وكانت الساعة قرابة العاشرة مساءً، وبدون أدنى مقدمات سمعنا عبر مآذن الجوامع نداءات لإخلاء المنازل، ما زلت أذكر تلك الأصوات حتى هذه اللحظة وكأنها تنطلق الآن: (يا أهالي المنطقة الكرام، لا ينام أحدكم في منزله، المكان لن يكون آمنًا في غضون بضع ساعات). نظرت إلى زوجتي مدهوشًا بينما نظرت لي فَزِعة.

- أيمزحون؟ (سَأَلَت زوجتي).
- لا أظن أنّ مزاحًا في هذا الموضوع! (أجبتها).

وطلبت منها الإسراع بالصعود للمنزل لجلب كل ما يمكننا جلبه، جمعتُ أوراقنا الثبوتيّة، وبضع مصوغات ذهبية هي كل ما تملكه زوجتي من الحليّ، وأخذنا عدة قطع من الملابس لكلّ منّا، ونزلنا إلى الطريق بحثًا عن أيّة عربة تنقلنا وبالطبع لم نجد أحدًا، فمظاهر الحياة كلها اختفت من أمام أعيننا كما السحر، وكنّا بالفعل كما يقول المثل "آخر من يعلم".

فكرنا سريعًا و لم نجد إلاّ أن هاتفت زوجتي أخاها طلبًا لإنقاذنا، وذلك لكونه وحده من معارفنا من يمتلك عربة وقتها، وبالفعل هاتفته فجاء مسرعًا وانتشلنا من وحل الرعب، وطَلَبتُ منه إيصالنا إلى أقرب بيت من بيوت إخوتي، ففعل مشكورًا ثم غادر إلى بيته، وبتنا ليلتها في منزل أخي وكان ذاك اليوم آخر يوم دخلت فيه أسرتي منزلنا في ذاك الحيّ الشعبيّ في الطابق الرابع من تلك البناية.

كان ذاك اليوم الأسود ضمن فترة العطلة المدرسية، لذا ومن دون الحاجة لتفكير عميق لم نجد حلاً أفضل من الذهاب والاستقرار في مدينة القنيطرة، حيث يمتلك والد زوجتي منزلاً، فذهبنا على الفور

وبعد مرور أسبوعين أو ما شابه على استقرارنا في تلك المدينة احتاجت مريم لعملية نقل الدم.

وبدون أدنى تأخير طلبنا من أحد المعارف في المنطقة، وكان يعمل على عربته كعربة أجرة، نقلنا إلى أقرب مستشفى، وهناك شاهدنا بأم أعيننا ما لا تُحمد رؤياه، شاهدنا العديد من المصابين، المدنيين والمجندين على حد سواء ورائحة الموت تعبق بالمكان. انتابني فزع حقيقي من ذلك خصوصًا وأن صغيرتي مريم بين يديّ. ولكن كما يقولون للضرورة أحكامها فاستجمعت أبوّتي وتقدمت لزاوية الاستقبال طلبًا للدم من أجل مريم، كنّا وقتها ما نزال في الصباح الباكر، وما كان منهم إلاّ أن طلبوا بضعة تحاليل، وعلى مهل شديد قاموا بإجرائها، وبعد مضيّ ست ساعات أو ما شابه توصل العاملون في ذاك المستشفى كون مريم بحاجة لنقل الدم!

وكم استبشرت خيرًا لوصولهم (سريعًا) لتلك النتيجة! وعندما سألتهم بعجالة عن المرحلة التالية أعلموني بعدم توفر أيّة وحدة دم زائدة، وأن حل مشكلتي يكمن في الذهاب إلى العاصمة وإحضار وحدة دم والعودة بها إليهم. وكم صدمتني إجابتهم! سألتهم عن سبب عدم قولهم لذلك منذ الصباح الباكر فأجابوا ببرود قاتل بأن ذلك ما حدث، وأن ما حدث قد حدث وانتهى الأمر.

عدت إلى المنزل خائبًا ووقتها قررت العودة إلى العاصمة مع مريم، في البداية ظننت الأمر بسيطًا كما العادة، وكم فاجأني استهلاك الطريق لخمسة أضعاف الوقت الذي تستهلكه عادةً، إذ واجهنا العديد من الحواجز الأمنية، ولولا وجود مريم معي لطال الأمر أكثر، إذ كنّا نحظى بمعاملة أفضل من غيرنا لمرافقتنا لمريضة على حسب قولهم.

وبعد جهد جهيد وصلنا إلى مركز الثلاسيميا، وللمصادفة الجميلة قابلت مديره على المدخل، وأعلمته باحتياج مريم لعملية نقل دم، وكم فاجأني بقوله بأن القوانين في المركز قد تغيرت، وأن على كل مريض جلب الدم بنفسه، وكانت الإجراءات كالتالي؛ أن يذهب أحد ما لبنك الدم المركزي ليقوم بالتبرع لصالح المريض، والمركز بدوره يعطي المتبرع إيصالاً باسم المريض، وعندما يصل الإيصال لمركز الثلاسيميا يقوم المركز بإعادته لبنك الدم ويأخذ وحدة حسب الزمرة المناسبة.

وبالرغم من ذهولي الشديد مما أخبرني به مدير المركز سألته ببراءة عمّا سأفعل في ذاك اليوم بالتحديد، أعترف لكم لقد أثرت شفقته! ولكوني كثيرًا ما ساهمت في المركز على مدار سني نقل الدم لمريم، كتنظيم المرضى وحمل الأطفال المصابين ومساعدة الممرضات، عمل مدير المركز ما بوسعه ومنحني وحدة دم ملائمة لصغيرتي.

وعندما انتهينا من أمر نقل الدم لمريم تنبّهت لكون الوقت قد تأخر وأننا من كل بد سنضطر للنوم في دمشق، ولذلك اخترت أقرب المنازل عن موقعي وكان منزل أهل زوجتي. لذا توجّهت إليهم وتبيّن لي أن منزلهم كان فارغًا وقتها، وكم حمدت الله على وجود نسخة من مفتاح بيتهم معي! وكم أساءني كون معظم بيوت الحي وقتها فارغة من سكانها، نمنا بدون كهرباء مع وجود القليل القليل من الطعام، وبالرغم من ذلك كنت في قمة سعادتي إذ تَزَوَّدَت صغيرتي بالدماء الكافية لها لما بين الأسبوعين والثلاثة.

وفي الصباح عاد والدا زوجتي ليسعدوا بلقاء مريم في منزلهم دون أدنى توقع منهم، وكان ذلك كتصديق للمثل الشعبي القائل "ربّ

صدفة من غير ميعاد"، كانوا في زيارة شاملة للمبيت لأحد أبنـــائهم، وبعد تناولنا لما تيسر من الطعام قررّنا الخروج معًا لمدينة القنيطـــرة في فترة ما بعد العصر.

كان الوضع الأمني هادئًا وقتها بعض الشيء، ولذلك خطر على بالي القيام بزيارة سريعة إلى بيتي، في الماضي اعتدنا أن تستغرق الطريق ما بين بيتنا وبيت أهل زوجتي قرابة الأربعين دقيقة سيرًا، والطريق جدّ جميلة ومحببة إلى قلبـــي، وهي عبارة عن حارات قديمة وأسواق شعبية مكتظة بالبضائع كما بالزوار. تذكرتها وتذكرت تفاصيلها واشتهاها قلبـــي فعزمت الأمر على تكرارها، و لم يكن ليخطر على قلبـــي أنها المرّة الأخيرة التي حظيت بعبورها حتى يومي هذا.

أخذت قراري واستجمعت قواي وانطلقـــت، ووصـــلت إلى شارع يدعى شارع فلسطين ومنه إلى شارع اليرموك ومـــن بعـــدها دخلت بين الحارات، الحارة تلو الأخرى، ولكنها لم تكن الطريق هي ذاتها التي أحببت؛ كانت الطريق شبه فارغة من البضائع كمـــا مـــن البشر، وكان الإغلاقُ الصفةَ السائدةَ لمعظم محالها التجارية. وبقيـــت على حالي أتنقل إلى أن وصلت أحد الأسواق القريبة من بيتي وهناك شاهدت ما هو أكثر إفزاعًا!

رأيت يومها جثة حافلة كبيرة بدا أنها قضت في انفجـــار مـــا، ويجاورها العديد من العربات المحطمة وبعض أطراف آليات عسكرية مبعثرة، محترقة وغير محترقة، كما رأيت واجهات المباني وقـــد رَسَـــمَ عليها الرصاص بعبثيّة محضة العديد من اللوحاتِ القبيحـــةِ المتعـــددةِ الثقوب، ومن شدة سوء المشهد أمامي نظرت إلى قدميّ متســـائلاً: كيف ساقتاني إلى تلك البقعة من العالم؟ ولكـــنني لم أتمكـــن مـــن

رؤيتهما، ورأيت عوضًا عنهما أرضًا مثقلةً بأعيرة نارية تبعثرت بكثافة في كل مكان.

في الواقع أفزعني المنظر لدرجة أن عزمت أمري على التقهقر للخلف، ولكنّ مشكلتي كانت في "إلى أين!" كان يتواجد العديد من الجنود في المنطقة، وحسب وجهة نظر الجنود قد تتشابه بنسبة كبيرة فكرة "تراجع الأحمق" مع فكرة "هروب المجرم" لذا وجدت في تراجعي حماقة أكبر من حماقة زيارتي لبيتي.

ولذلك فقط تقدمت وجسدي يترقب أيّة رصاصةِ جنديّ أثرت للتوّ ريبته، وعند مفترق الطرق المؤدي لبيتي وجدني أحد الجنود وقد تحفزت هيئته، ألقيت عليه التحية ببالغ الحذر وعلى الفور أعلمته بأنني من سكان إحدى البنايات الموجودة على بعد عدّة أمتار، ودون أن انتظر ما يودّ قوله طلبت إذنه لمتابعة طريقي. وما كان من الجندي سوى أن أذِنَ لي مع ابتسامة. تشاءمت لكونها ابتسامة في غير محلها، وبالرغم من ذلك تابعت طريقي وفزعي يتعاظم مع كل خطوة أخطوها، وأثناء ذلك كان ندمي يتعاظم أيما تعاظم، وكم تساءلت أن مالي وما لبيتي وحاله! وأي جزء منه يستحق أن أُعتقل أو أُصاب أو حتى أن أموت من أجله!

وأخيرًا حدث أن وصلت مدخل البناية ووجدته مكسورًا، تشاءمت أكثر من ذي قبل، وصعدت الطوابق الواحد تلو الآخر ووجد كل ما مررت به من أبواب البيوت محطمة، وهكذا إلى أن وصلت الطابق الثالث، وكنت وقتها أحدّث نفسي بأن الفاعل بالتأكيد ملّ بعد الطابق الثالث وترك بيتي وما فوقه وشأنهم، وتابعت إلى أن وصلت، وكم آلمني منظر باب بيتي المحطم!

دخلت البيت مسرعًا وفور دخولي تساءلت إن كان حقًا هو بيتي أم لا، كان مقلوبًا كلّه رأسًا على عقب، وكل ما فيه استقر محطمًا على الأرض، في الواقع لم يكن في البيت ما هو ثمين بحق، وأثمن ما فيه كان تنكة زيت الزيتون وجرّة الغاز وحَصّالة أبنائي "المطمورة" وكانت جميعها قد سُرقت، ويا لخيبة السارق قبل خيبتي!

حملت خيبة أملي على ظهري وتقهقرت للخلف قاصدًا الاندحار إلى بيت أهل زوجتي، ورغم كونها ذات الطريق التي أتيت منها شعرت بفزع مضاعف وبألم يعتصرني، وكنت غريقًا بالحزين على كل تفصيلة صغيرةٍ بنيتها وزوجتي بجدّ لتحطّمها تلك الأزمة، وأثناء عودتي أخذت أتساءل عمّا سأخبر به زوجتي وأولادي عندما يسألونني عن بيتنا، وخصوصًا أطفالي؛ أسأخبرهم حقًا أن "مطمورتهم" قد سُرقت!

وبعد دخول العصر بقليل انطلقنا إلى القنيطرة، أنا ومريم وأهل زوجتي، وكانت بالطبع مريم أسعدنا، مريم التي تزودت للتوّ بوقودها الخاص لمدة أسبوعين على أقل تقدير! وتابعنا مكوثنا في بيت القنيطرة طوال مدة الصيف، ومع فتح المدارس أبوابها اضطررنا للعودة إلى دمشق، ولحسن حظي أنني سكنت منزل أحد أقاربي المقيمين خارج البلد، وفي ذلك البيت بدأ فصل جديد من فصول معاناة صغيرتي مع مرض الثلاسيميا.

## الجزء الخامس..

- جدّي أتشتري لي البسكويت؟ (الحفيد، بلهفة المحروم).
- نعم! (الجد، بذهول المكلوم).

صَمْتْ...

- حسنًا سأفعل. (تابع الجد، بحماسه "المؤقت" قبيل بدء عاصفة ندم جيبه شبه الفارغ).

ابتسم بائع البسكويت أخيرًا.. وكأنه انتصر!

# اندلاع الأزمة

كان المنزل الذي سكناه فور عودتنا من مدينة القنيطرة يقبع في أحد الأحياء التي حلمت بالسكن فيها قبيل اندلاع الأزمة، وذلك لكونها جديدة نسبيًّا وطرقها أكثر رحابة وكثافتها السكانيّة أقل بكثير مما يجاورها. وكنت أجد كلفة استئجار مسكن في هذه الأحياء جدّ مكلف نسبةً إلى مدخولي الشهري. وكان ذاك الحيّ قريبًا وبعيدًا في ذات الوقت بالنسبة للمدرسة التي عملت فيها؛ أقرب بكثير من المنزل الذي سكناه في مدينة القنيطرة، وأبعد بكثير نسبةً إلى مسكني السابق.

وكم كان مؤسفًا ما وجدت عليه حال الحيّ عندما سكنته بعد اندلاع الأزمة، إذ صيّرته ظروف البلد القاهرة إلى حيّ شعبيّ شديد الاكتظاظ بسبب استقباله أعدادًا هائلة من المواطنين المُهَجَّرين، إذ بات في كل بيت من بيوت الحيّ عدّة عوائل إلاّ ما ندر، وبسبب ذلك احتجت إلى شبه معجزة لأتمكن من تسجيل أبنائي في إحدى مدارس المنطقة، إذ لم يَتَقَبّل عقلي بتاتًا فكرة ضياعها ولا حتى لمدة سنة واحدة على أولادي. وكان أجمل ما حظيت فيه أثناء سكني في ذاك الحيّ تمكّن أهلي من الانتقال والسكن بالقرب مني، وذلك فور وصول منطقتهم لدورها من التهجير.

كان الطريق يستغرق نصف ساعة أو ما شابه ما بين مسكني في الحيّ الجديد والمدرسة حيث أعمل، ولكنه مع الأوضاع الأمنية المتأزمة بات يستغرق ما بين الساعة والثلاث ساعات، وأحيانًا يفاجئنا الطريق بأنه مقطوع بشكل كلّي، لذا كنت أخرج من منزلي قبل الموعد المحدد بقرابة ساعتين كي ألحق الوصول في الوقت المطلوب، والأسوأ من ذلك كان ارتفاع أجرة المواصلات لعشرة أضعاف، وذلك لعدة أسباب من بينها قلّة الوقود، وزيادة الضغط الجماهيري على خط النقل.

وبالرغم من كل المصاعب التي واجهتنا ما فتئت أحمد الله على استمرار عملي وتوافر بيت يؤويني وعائلتي، إذ أن توافر هذين الأمرين نعمة لا تقدر بثمن وخصوصًا في ظرف كظرف وطننا.

أما العمل في المدرسة، وكانت مهامّي وقتها قد تغيّرت لأصبح كإداري بشكل كامل، فتحول إلى مصدر تعبٍ وإجهادٍ شديدين، خصوصًا مع كثرة حالات غياب الكادر التدريسي واضطراري لتغطية صفوفهم الشاغرة. وبالإضافة لمهامي في المدرسة كنت أتعرض لإحراج شديد من بعض الأهالي وأمتص وابل غضب بعضهم الآخر خصوصًا عندما يتعلق الأمر بطلب مقاعد شاغرة لأبنائهم. وبالرغم من عشرات الاعتذارات اليومية عن استقبال المزيد من الطلبة تضاعف عدد طلاب المدرسة، وفي المقابل بات تعداد الكادر التدريسي فيها لا يتجاوز النصف إلاّ ما ندر، وذلك بحسب النشرة اليوميّة لحالات الطرق المقطوعة.

وأما الحال بعد انتهاء عملي في المدرسة فكان يقتصر على التفكير في مادة الخبز، أصل كل مائدة طعام لمعظم بيوت بلاد الشام،

وبلا شك يعدّ البيت الشامي الخالي من الخبز بيتا جائعا، ولذا عملت المستحيل لإبقاء الخبز متوافرًا في بيتي ما استطعت، وهو أمر لا يستهان به البتّة، فمع تضاعف أعداد السكان ومع تقطّع الطرق ومع انقطاع الوقود والمواد الخام بات الخبز مطلبًا جماهيريًّا.

كانت تأتي عربات تحمل آلاف حزم الخبز لتختفي حمولتها في غضون دقائق لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة. وكان مما ساعدني في مهمة تأمين الخبز شبه المستحيلة وجود ما بات يُطلق عليهم اسم "وسطاء الخبز"، وهم من يملكون من الأقارب أو الأصدقاء العاملين في المخابز ما يملكون، فيوّفرون الخبز بشكل أيسر لمن يرغبون، وفي مدرستي ومن بين أهالي طلابي البعض من هؤلاء الوسطاء ولله الحمد.

وأما صغيرتي مريم فأخذتني بمعاناتها إلى منحنى آخر، إذ كانت في تلك الفترة ما بين الثالثة والرابعة من عمرها، وبات العبء المتمثل في البحث عن متبرع دم جديد كل فترة إضافة جديدة لما على كاهلي من الأعباء، بل كان العبء الأثقل على الإطلاق. وبمعنى أو بآخر بات عليّ تسوّل الدم، وفي أحسن الألفاظ كانت مهمتي "صورة من صور تسوّل الدم".

وبخصوص ذلك لم أكن لأختار المتبرعين بشكل عشوائي، بالطبع لا، فكنت أُفضل المتبرعين من مدينة دمشق لا من ضواحيها، وذلك للتخفيف عن المتبرع وعني عبء المواصلات سواء من ناحية الوقت أو الكلفة، كما أن في ذلك أكثر أمانًا، كما كنت أُفضل المتبرعين المتضامنين معي من محيط مدرستي، بالتحديد ممن يبدون الرغبة بالتبرع من كادر المدرسة أو أهالي الطلبة ومن بعدهم أي أحد

يسمع معاناتي ويتأثر بها حد التبرع بالدم، كنت كثيرًا ما أقصّ قصة مريم وأستشف من لهُ رغبة أو مجرد نصف رغبة فأتابع قصّ قصتي حتى يدلي نصف الراغب بموافقته ويتبرع بالدم.

كثيرون من تبرعوا من أجل مريم، لم يؤثر اندلاع الأزمة على الخير الموجود في قلوب البشر، وكم أجللت وقدّرت كل من تبرع من أجل صغيرتي، وكنت من باب العرفان أطلب عربة أجرة خاصة للمتبرع لتنقلنا إلى بنك الدم المركزي، وعربة أجرة خاصة أخرى لتعيده للمكان الذي كان فيه، ولن أنسى كم كانت مديرة المدرسة متساهلة بخصوص تحركاتي أنا ومن معي من المتبرعين.

قبل اندلاع الأزمة كانت تحتاج الطريق ما بين مدرستي وبنك الدم قرابة العشر دقائق، أما أثناءها فساعة على الأقل! ومقابل عشرة أضعاف أجرة الطريق! وبالطبع لم أكن لأبالي بالكلفة ما دامت النتيجة توافر الدم لمريم. كما كنت أحمي إيصال التبرع بجوارحي، أضمه لصدري وأطبق عليه بذراعيّ، وفي صباح اليوم التالي أجلب معي مريم للمدرسة، أوقظها باكرًا رغم كون البرد لها بالمرصاد، وأحملها باحثًا على وسيلة مواصلات تقلّنا، كان العثور على عربة صعبًا فكيف ومريم بين يديّ! كنت أحيانًا أضطر لركوب عربة متجهة لعكس الوجهة التي أبتغيها كي أحجز مقعدًا فيها عندما تعود خاوية لذات النقطة التي أركب منها، وبالطبع أدفع الأجرة مرتين!

كانت مريم ترى في يوم نقلها للدم عيدها الخاص، تكاد تطير من السعادة دون حاجتها لأجنحة، وذلك بالرغم من استفراغها المعتاد في تلك الأيام بسبب البرد. كان كل من في المدرسة يهتم بها بشكل خاص، كانت تتناقل بين دعابات زملائي ومداعبات زميلاتي،

وكانت تشارك حصص الرسم المتوفرة، وفي قرابة الساعة العاشرة أنتقل وإياها إلى مركز الثلاسيميا وعادة ما كنّا ننتهي من ذلك بعد العصر، وحتى تلك الأيام كان لا يزال يراودني حلم إجراء العملية لصغيرتي.

واستمرت الحياة، وازدادت صعوبات توفير الخبز للعائلة، والدماء لمريم التي كلما كبرت احتاجت للدم بوتيرة أسرع، فعند ولادتها مثلاً كانت تحتاج للدماء مرةً واحدة كل شهر، أما ما بين الثالثة والرابعة من عمرها فباتت تحتاج للدماء مرة قرابة كل أسبوعين، وكنت في نهاية كل يوم تبرع أشعر بسعادة بالغة لا يشوبها شائبة سوى تفكيري بمن سأحاول استجداء عطفه لمنحي من دمائه في المرة القادمة.

وفي المدرسة كان مكتبي في الطابق الأول، ويراجعني فيه أعداد كبيرة من الأهالي بغية السؤال عن أولادهم وبالمعيّة تتشعب أحاديثهم كثيرًا، وفي وضع مشابه كان كثير من زملائي المدرسين يستغلون أوقات فراغهم بالجلوس معي في مكتبي وأيضًا تتشعب أحاديثهم كثيرًا، وبالمحصلة كان يومي يمضي بين حديثي عن مريم ووضعها الصحي الخاص وسماع هموم العديدين، وكنّا ككل كُلّما سمعنا عن جهة خيريّة أو إغاثيّة نجعل منها حديثنا الأبرز ونفكر معًا بكيفية الوصول إليها، وأحيانًا من كم الهموم التي أبوح بها من جهة وأستقبلها من جهة أخرى كنت أشارك في حصص الرياضة في محاولة لنسيان أمري الواقع.

أذكر أنه ذات مرة انفجرت إحدى القذائف في واجهة أحد المباني التابعة للمدرسة وتسببت بجرح أربعة طلاب، مما سبب اندفاع

المئات من الأهالي للاطمئنان على أبنائهم، ومن ذاك اليوم دخل محور جديد على محادثاتنا اليومية. كنّا كطاقم إداري وتدريسي قرابة الأربعين شخصًا، ومن بعد حادثة القذيفة دخل أكثر من نصف الكادر في الكلام عن الهجرة كحلٍ وحيد لما بدا بلا حل وقتها، وباتت أحاديثنا السائدة متمحورة فقط حول من هاجر من الأقرباء والمعارف، وكانت الندرة النادرة منّا من ترّد رافضةً الهجرة. وأما أنا فكنت مجرد مستمع جيد، ولم يتعدَ الأمر بالنسبة لي أكثر من ذلك.

واستمرت الحياة بمرّها قبل حلوها ودخل علينا شهر رمضان المبارك العام 2014م، وكم كان كريمًا رمضان تلك السنة، إذ كانت تتوفر الأغذية بانسيابيّة أكبر رغم الأزمة. وفي ذاك الشهر كما في كل رمضان عشته من قبل، كنت أرفض دعوات الطعام خارج المنزل إذ كانت لي طقوسي الخاصة؛ أتناول التمر والماء بعد آذان المغرب وأترك وجبة طعامي الرئيسية لما بعد صلاة العشاء فأتناولها بمتعة باذل جهد العبادة، متخذاً إحدى زوايا التراس الخارجي الموجود في مسكني في الحيّ الجديد المكان الذي أتناول فيه طعامي كل مساء.

ومع انقضاء بضعة أيام من شهر رمضان تعرفت إلى أحد المُهجَّرين مثلي واتخذ كلٌّ منّا الآخر صديقًا له، كنّا نتسامر طوال المسافة ما بين المسجد وبيتي ومن ثم يكمل طريقه إلى بيته، وكان يسكن على بعد بضعة أمتار عني، وفي أحد الأيام ونحن خارجان من المسجد أخذ صديقي يخبرني عن قريب زوجته الذي هاجر إلى دولة السويد عن طريق الجزائر كمرحلة أولى، في الواقع لم يعنِ لي الأمر بتاتًا، وفي المقابل كان صديقي يتحدث من أعماق عقله، وكان يحلم بالهجرة ويخطط لها في خياله فور وصول قريب زوجته للسويد.

حقًا كان يومًا عظيمًا ذاك اليوم، كنت في قمة جوعي وفي المقابل كان صديقي في قمة انهماكه في سرد تفاصيل هجرة قريب زوجته، كان كلامه بالنسبة لي مكررًا للمرة الألف على الأقل، وبالرغم من ذلك لم أكن لأقاطعه ولا كنت لآبه بفكرة الهجرة من الأصل. فلِتُفكر بموضوع الهجرة عليك تأمين مبلغ أقله خمسة آلاف دولار.

ولذلك باع البعض بيوتهم وهاجر والبعض الآخر باعوا عرباتهم وهاجروا، أما أنا فمن أين لي بخمسة آلاف دولار ودخلي المادي كان وقتها لا يتجاوز المئتين وخمسين دولارًا شهريًّا، حتى أنه لا يكفيني لمدة نصف شهر أنتظر بعدها كغيري دعم أقاربي المقيمين خارج البلد!

وأثناء انهماك صديقي في حديثه ظهر أمامي أمجد، أمجد الرجل الذي عملت معه في توزيع مواد البناء، كنت لم أصادفه منذ توقفنا عن عملنا معًا. ألقى أمجد علينا السلام مبتسمًا فرددته إليه وأردفت قائلاً: (يا أخي أمجد، الجميع سافر وأنا لم أسافر!) ما زلت أذكر تلك اللحظات كما لو أنها حدثت منذ ثوانٍ.. لا بل أقل، ولوهلة شعرت بأنني لست من نطق بما قلته له وأن أحدهم قام بذلك نيابةً عني، شعرت أن الله أنطق لساني بما لم أُحدّث نفسي به قط، خجلت من لساني للحظات أنهاها أمجد بتعليقه القائل: (سافر وأنا سأدفع عنك كل المصاريف) ثم ابتسم ورحل.

- سيدفع لك! ماذا تنتظر، يا لك من رجل محظوظ. (صديقي، قافزًا أمامي).
- أمجد! (أجبته متسائلاً ببرود).

- نعم! ألم تسمعه بأذنيك؟ (أجاب بحماسة).

صمتنا قليلاً إلى أن أضاف صديقي قائلاً:

- مريم، ابنتك ستتمكن من معالجتها!

تذكرت! نعم تذكرت ما لم أنسه قط، مريم، مريم صغيرتي، الثلاسيميا، العملية الحلم، الشفاء، تكفير ذنبي تجاه من أنجبتها! ارتبكت نوعًا ما وشعرت بالتيه للحظات، وبشكل عجول استأذنت من صديقي واتجهت مسرعًا إلى بيتي، في الواقع لم أستوعب حتى كيفية وصولي إليه، كنت في عالم آخر لم أدرك منه شيئًا لدرجة أنني تفاجأت بوجودي أمامه، وكان مظلمًا أظلمه انقطاع الكهرباء، ولحظتها شعرت أن في ذلك إشارة لي من نوع ما.

دخلت بيتي بجسدي دون روحي التي كانت الهائمة في اللامكان، فتنبّهت زوجتي لحالتي وشعرت على الفور بوجود كربٍ ما يدور في ذهني، فاقتربت مني وسألتني بأخفض صوت مسموعٍ مستفسرةً عمّا أصابني، فأجلستها وجلست جانبها وقصصت عليها ظهور أمجد وما دار بيني وبينه، ودون أن تبذل أدنى تفكير أكدت لي أنه مجرد حديث عادي لا يتجاوز كونه مزاحًا.

وبعد ذلك توجهت إلى مائدة طعامي دون أدنى رغبة لتناول أي شيء، كنت قد فقدت شعوري بالجوع، وعوضًا عن ذلك أخذت أدخّن بشراهةٍ وبذهنٍ مشتت، وشعرت بالمعنى الحقيقي لكلمة التيه. تساءلت مطولاً إن كان أمجد صادقًا بالفعل أم لا، وأثناء ذلك أخذت زوجتي تطالبني بالكف عن التدخين والبدء بتناول الطعام. أثمنى منها أن تقبل باعتذاري الآن فلم أكن أعبأ وقتها بكلامها، وعوضًا عن ذلك خرجت قاصدًا منزل أمجد.

لم يكن بيته بعيدًا عني، أو بالأحرى هذا ما شعرت به، قرعت جرس باب بيته وانتظرت خارجًا، بضع ثوانٍ بعدها وفتح لي أمجد الباب بنفسه وأجلسني في حديقة منزله وطلب من إحدى بناته تحضير الشاي لنا، ولحظتها سألته سؤالاً واحدًا لا غير.

- أحقًا ستدفع عني أجرة السفر؟ (بصوت مهزوز).
- بالطبع. (أجاب بثقة).

انتظر قليلاً ثم أضاف:

- ولكن عليك التقصّي عن التكلفة جيدًا، وأن تؤكد لنفسك قبل أن تؤكد لي عدم تعرضك للخديعة.

ومجددًا انتظر قليلاً ثم أضاف:

- كما عليك الحصول على موافقة والديك.
- والداي؟ لا أدري! (تنهدت قائلاً).

صَمَتَتْ قليلاً ثم أضفت قائلاً:

- أتراني سأسافر في حال وافقني أهلي؟ (سألته مجددًا).
- لِمَ لا! (أجاب).
- وأنت ستدفع تكلفة ذلك؟ (سألته مجددًا).
- نعم، لِمَ لا! (أجاب مجددًا).

انتابني في نهاية ذاك الحوار القصير شعور غريب مبهم، وصدقًا لا أدري إن شربت يومها كأس الشاي الذي شَرَعَت في إعداده إحدى بنات أمجد أم لم أشربه! وكل ما أذكره بعدها أنني توجهت بشكل مباشر إلى بيت أهلي وطرقت باب بيتهم بهدوء مجرمٍ تائبٍ، ومن بعيد سمعت وقع خطوات أمي قادمة وفتحت لي الباب وبدون مقدمات سألتني:

- ما بك؟
- أين أبـــي؟ (أجبتها متسائلاً).
- ذهب لينام. أخبرني ما بك؟ (أجابت، ثم سألت مجددًا).
- سأسافر. (أجبتها).
- فليكن الله معك. (أعقبت بقلب أم).

وهمّت لنزع آخر ما تمتلكه من أساورها الـــذهب مـــن يـــدها لتمنحني إياها، فأمسكت عليها يدها بلطف وطمأنتها بكوني أمتلـــك ما يكفيني من المال، وأثناء ذلك دخل والدي علينا الحجرة وسألني:

- إلى أين؟ (بوجه صامد).
- أوروبا.. أو ما شابه. (أجبته بصوت مهزوم).
- ومعك ما يكفيك من النقود؟ (سأل بوجه ثريّ).
- نعم. (أجبته كواثق للمرة الأولى في حياته).
- متأكد من ذلك؟ (سأل مجددًا).
- نعم. (أجبته بصوت متردد هذه المرة).
- عليك بالاستخارة. (طالبني وهو يستدير مغادرًا).

وبصوت مخنوق سمعته يقول:

- رضي الله عنك وأرضاك.
- عليك بالاستخارة. (والدتي بقلب أم مرة أخرى).

ثم غادرت متوجهًا لمنزلي ودعوات أمي من خلفـــي تلاحقـــني.

وعندما أعلمت زوجتي بما حدث معي سألت مرتابة:

- أموال أمجد هذه دين؟
- لا أدري. (أجبتها).

انتظرتُ قليلاً ثم أضفت:

- كما أن أهلي لا يمانعون.
- حقًّا، لا أدري. (زوجتي معقّبة على حوارنا).

وتابعت أيامي وأنا في تيه عظيم استمرّ حتى آخر اللحظات قبيل سفري. وقلبي يحدثني بالبقاء مع عائلتي، وعقلي يحدثني بالسفر للحفاظ عليها، وخصوصًا لتوفر إمكانية حقيقية لتحقيق حلمي الأوحد وإجراء العملية لمريم، مريم صغيرتي تحب القطط.

يا إلهي كيف نسيت إخباركم سبب حب مريم القطط؟

## الفصل الحادي عشر

# البداية

سمعتُ صوتًا غريبًا، بدا كصوت مزلاج باب عملاق أو ما شابه، أتبع ذلك الصوت ظهور أشعة ضوء ساطعة، شاهدتها تبدد العتم ببطء، شاهدتها تصيب أجساد المُحتجزين، وصناديق العنب، وجسدي المتجمد. وشاهدت انتفاضة الحياة داخل الشاحنة، نعم لقد عادت الحياة! ولحظتها فهمت، نعم فهمت، فهمت أنني لا لم أمت بعد وأن أملي بالنجاة قد أصاب وتحقق!

لقد فُتِحَ الباب يا غسان! وكان صريره أثناء فتحه أعذب من أعظم موسيقى قد يسمعها إنسان، وبعدها بثوانٍ صعد أحدٌ ما الشاحنة، وأخذ يتكلم ما لم أفهم منه شيئًا، وبعدها بقليل تحرك أحد الأجساد المتجمدة، كان حيًّا هو الآخر، أُخرج من الشاحنة ببطء، بدا كأنه مشروع جثة، وبعدها بقليل صعد أحد رجال الأمن وقام بإنزالنا الواحد تلو الآخر. وتبيّن أننا جميعنا ما نزال أحياء.

وفور نزولنا كانت تُلتقط لنا عدة صور من قبل مجموعة من الصحفيين، كان هنالك عشرون رجل أمن على الأقل سألنا أحدهم عن من أدخلنا للشاحنة واعترفنا له على الفور، كما اعترفنا على مجموعة الأكراد بكونها تنتحل الجنسية السوريّة، وتبيّن لنا أن السائق القذر كان من دولة رومانيا.

وبعد تعافينا من حادثة البرّاد انطلقنا تاركين من خلفنا بلجيكا وفرنسا وبريطانيا لأهلها وللاجئيها وتوجهنا إلى ألمانيا حيث استقررنا حتى يومنا هذا، وتقدمت فيها بطلب لجوء، وفي غضون بضعة أشهر، بضعة أشهر فقط! أتمت الحكومة الألمانية إجراءات استقدام عائلتي، وفي غضون بضعة أشهر أخرى تم إجراء العملية لصغيرتي والتي كانت شديدة التعقيد.

ما زلت أذكر يومها إذ كدت أخسر فيها الروح السابعة والأخيرة من أرواحي السبعة، كدت أخسرها خوفًا وطمعًا، خوفًا على مريم وطمعًا في شفائها، والحمد لله على شفائها.

وبعد عودة الاستقرار إلى حياتي، الاستقرار الذي انقطع مني منذ اليوم الأول الذي دخل فيه مرض الثلاسيميا بيتي، ذهبت وابتعت رواية "رجال في الشمس" للأديب الفلسطيني الشهير "غسان كنفاني"، وعندما وصلت لنهاية روايته، وبالتحديد لتساؤله القائل: "لماذا لم يدقّوا جدران الخزان!" ابتسمت، وأجبته في نفسي بأن الأمر سيّان، فها أنا دققت جدران الشاحنة دون جدوى، ولحظتها تذكرت أسعد فهاتفته لأطمئن على أحواله، وأثناء حديثنا سألته:

- ترى كم كانت درجة حرارة الخزان؟
- تقصد الشاحنة أليس كذلك؟ (أجاب ضاحكًا ومستفسرًا).
- نعم؟ (أجبته ضاحكًا).
- أربعة سليسيوس. (أجاب بحرقة).

صَمَتَ قليلاً ثم أضاف:

- أربعة سليسيوس، أو ما شابه!

ومع جوابه الأليم فاضت دموعي بصمت حزين استوجب مني إقفال المكالمة، ثم ابتسمت على الفور رغمًا عن أنف فيضان دمـــوعي المنهمرة وذهبت لأتأمل مريم صغيرتي التي تحب القطط وهي تـــداعب قطتها الجديدة.

## الجزء الأخير..

تناول ناشطون عبر "مواقع التواصل الاجتماعي" خبرًا مفاده مقتل الطفل مصطفى عرب الملقب باسم "بائع البسكويت"، وكان قد قُتل جراء سقوط أحد البراميل المتفجرة، وقد عرف عن القتيل ذي العشرة أعوام تبسّمه الدائم ومزاحه مع زبائنه بشكل خاص والمارة بشكل عام.

**انتهى**